المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



الإسلام
وقيام دولة العلم والإيمان

للدكتور عبد العزيز محمد عزام

يصدرها : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة
العدد ٢٠١

كتب إسلامية

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة

الإسلام
وقيام دولة العلم والإيمان

للدكتور عبد العزيز محمد عزام

العدد ٢٠١

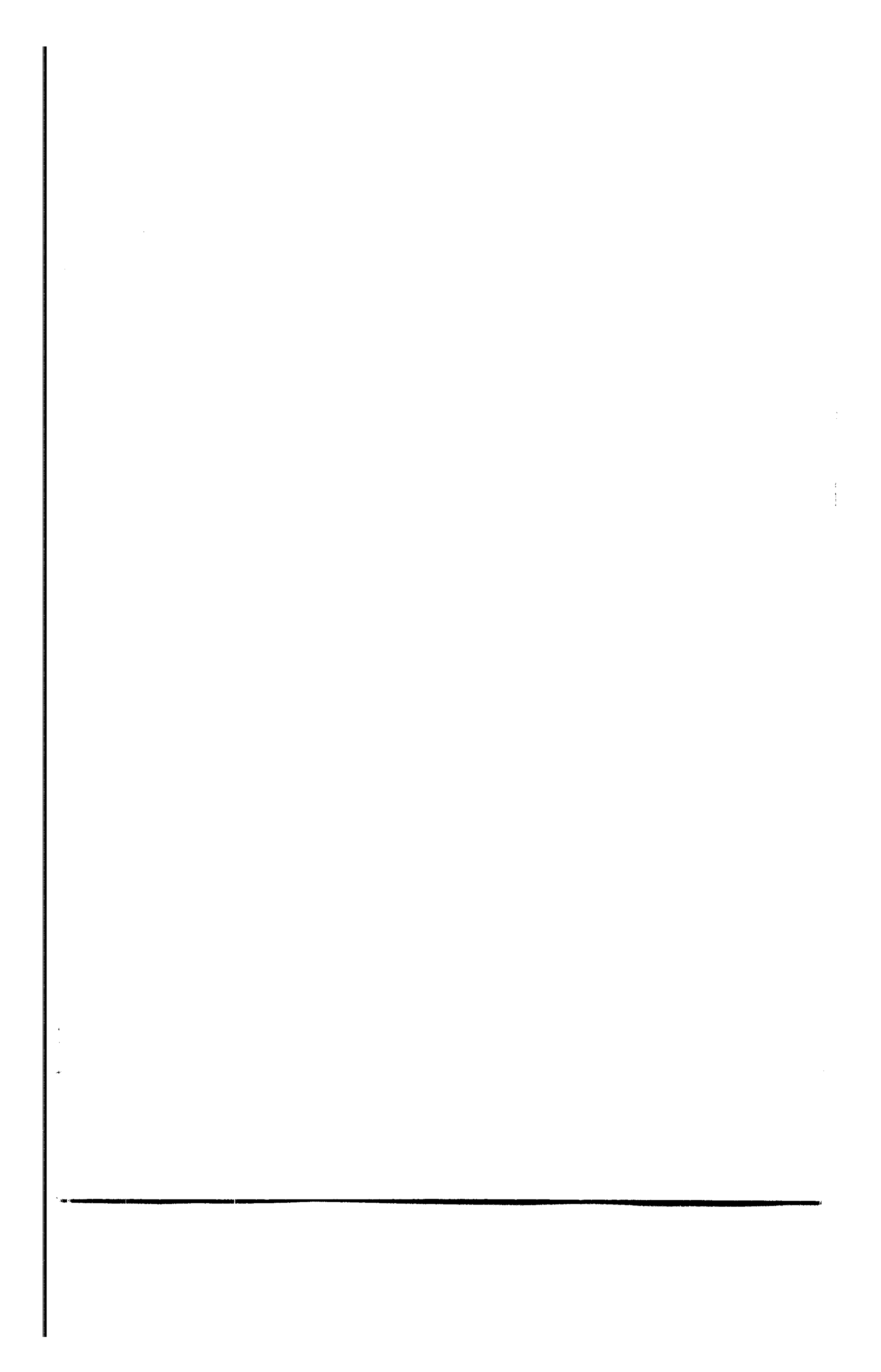
السنة السابعة عشرة

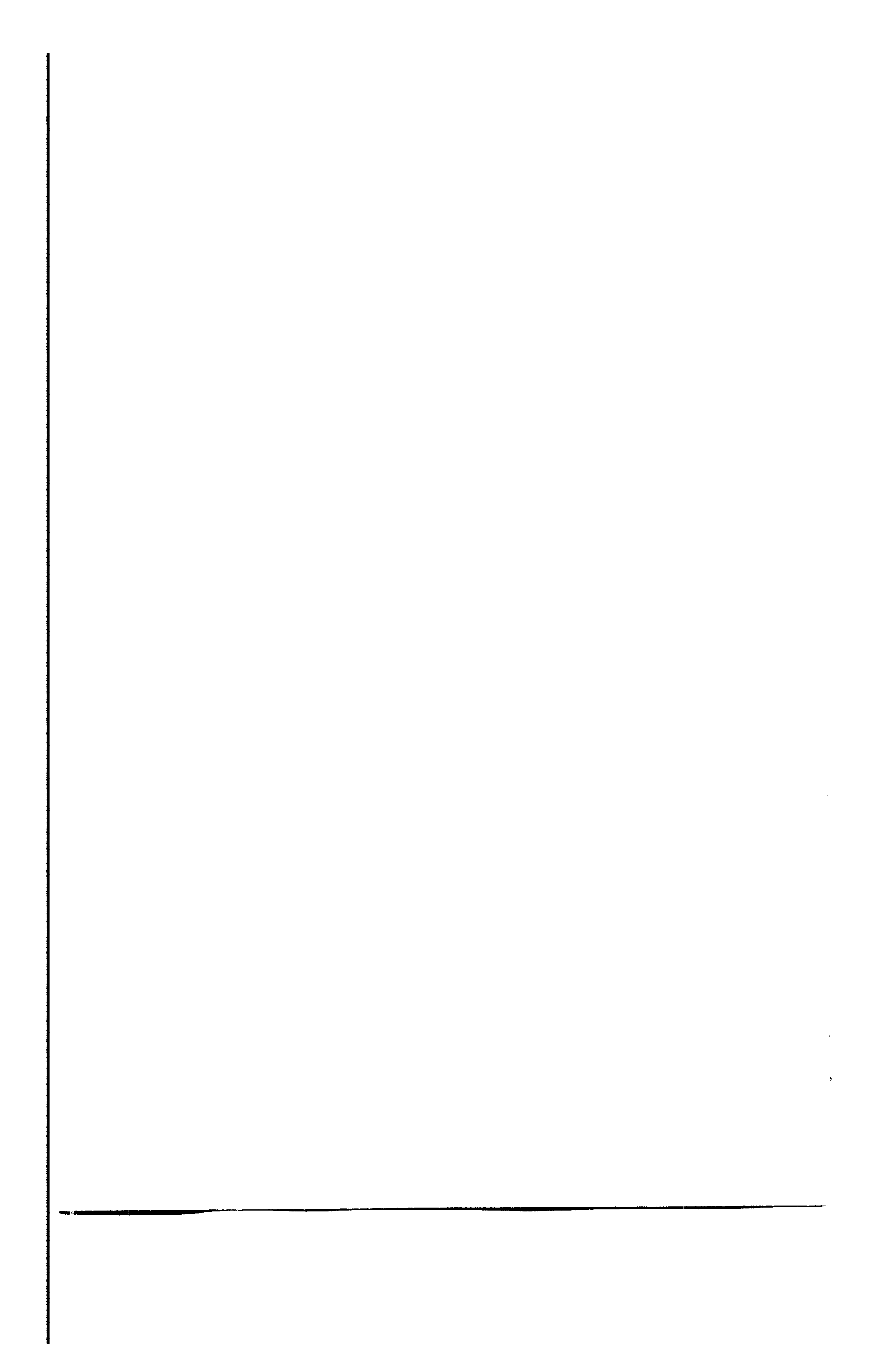
١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٩٧ هـ

٢٥ من نوفمبـــر سنة ١٩٧٧ م

يشرف على إصدارها

محمد توفيق عويضة





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

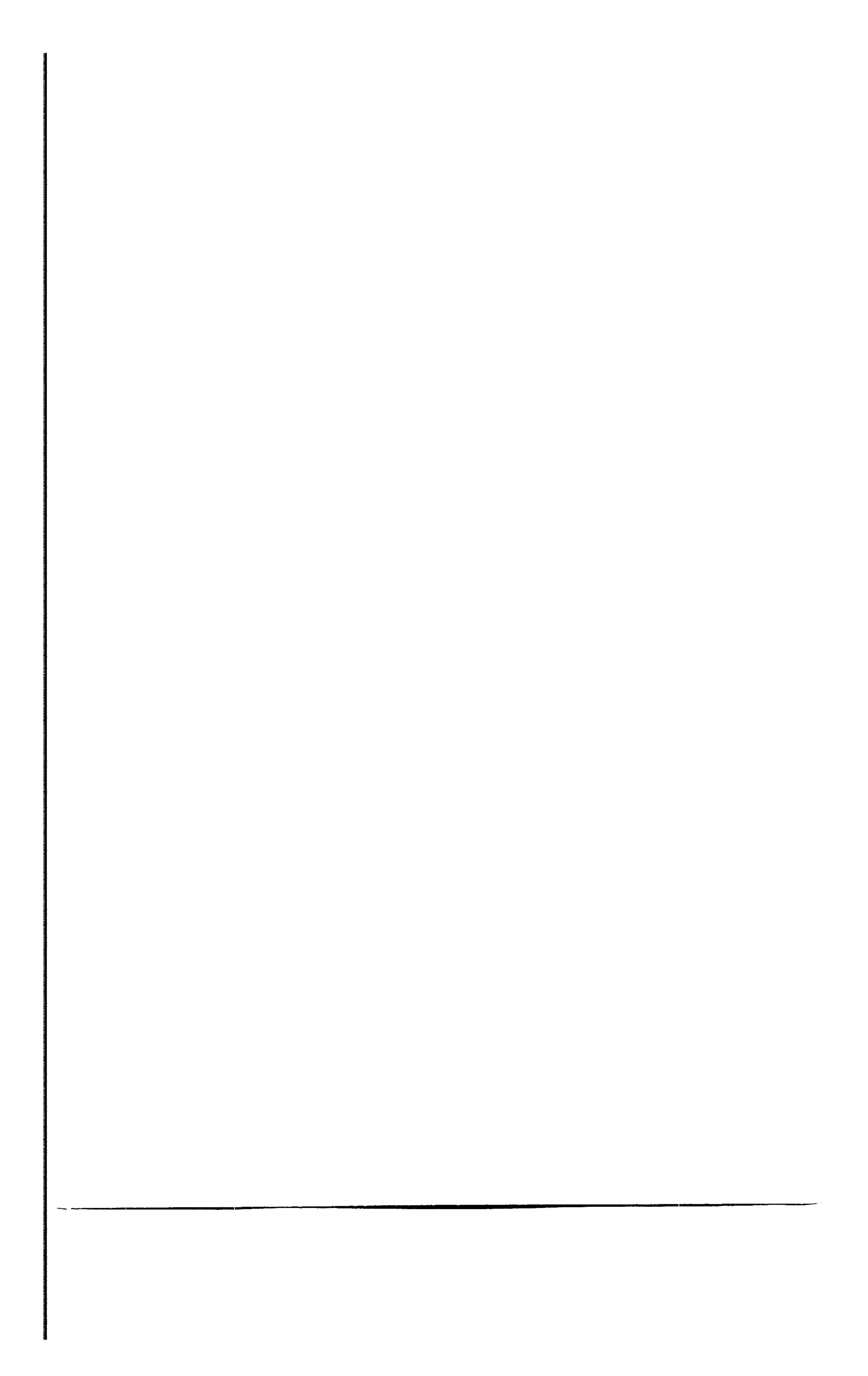
﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾.

(قرآن كريم)

وعن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة».

(حديث شريف)



مقدمـــــــة

الاسـلام دين إيجـابى تنمـو الحـيـاة فى ظله، وترتقى ، وهو دين الـتعـمـيـر والإنشاء وليس مجرد عـقيدة روحية للتهذيـب والإرشاد، وليس صلة خاصة بين العبد وربه، بعيـدا عن حياة البشر بل إنه مبعث المدنيات ومـشرق الحضارات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فهذا أمر معروف منذ فجر التاريخ ولسنا نقول ذلك بدافع من التعصب،فقد اعترف بذلك أكثر العلماء المنصفين .

يقول الدكتور [1](جـورج سـارتون) : « إن بعض المـؤرخين يحـاولون أن يستـخفوا بفـضل الشرق على العمـران، ويصرحون بأن العـرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولـم يضـيفوا إليهـا شيئا .. وهذا الرأى خـاطئ . وإنه لعمل عظيم جدا، أن ينقـل العرب إلينا كنور اليـونان وأن يحافظوا عليـها، ولولا ذلك لتـأخر سير المدنية بضعة قرون» .

وإن من يتصفح التاريخ يدرك تماماً أن الإسلام كان ولا يزال ثورة إصلاحية، ونقطة تحول فى تاريخ الإنسانية، وبفـضله برز من المسلمين علماء فى شتى أنواع الإصـلاح وفى كل علم وفن. أيام الخلفـاء الراشدين، وفـى أيام بنى أميـة ، وفى عصـور الدولة العباسيـة، وفى بلاد المغرب والأندلس .. استـطاعوا أن يبنوا ملكا عظيـما وأن يؤسسـوا حضـارة عربيـة إسلامـية كـان لها أكـبر الفضـل فى إنجاح الحضارة الراهنة وتقدمها .

---

(١) راجع : الخوارزمى العالم الرياضى الفلكى للأستاذين : المرحوم محمد عاطف البـرقوقى / أبى الفتوح محمد التوانسى ص ٤ .

ويمكننا أن نقول بحق، إنه لولا ذلك لتأخرت النهضة الأوربية قرونا طويلة [1] .

وإن من الواجب على المسلمين أن يقفوا في وجه هذه الحملات التى تتهم الإسلام بالجمود والتخلف وأن يبينوا للناس زيفها ، وعدم مصداقيتها فيما تدعيه وأنها حملات ، مغرضة بقصد التشويش ، والتشكيك فى صلاحية الإسلام.

وفى هذا الكتاب ما يفى للرد على هؤلاء .

المؤلف

---

(١) راجع : أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ محمد ابراهيم الصيحى ص ٢٢.

نظرة الإسلام
إلى العلم



نظرة الإسلام إلى العلم

الإسلام يرى أن العلم قرين للإيمان ويجعل من قاعدة العلم أساسا لحرية المعتقدات : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١). ويضعهما معا فى أولويات أسس التفضيل عند الله : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٢).

ويجعل من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما يجعل منه جهادا فى سبيل الله « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع».. وينبغى السعى الى طلب العلم فى كل مكان، ولو كان عند العدو الكافر ذاته، وقد كان الرسول الكريم ﷺ يشترط لفدية الأسير من الكفار أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، كما ورد عنه قوله : « اطلب العلم ولو بالصين».. ولقد كان السفر الى الصين وقتها من أشق الأسفار.

ولم يكن العلم الذى عناه الإسلام، قاصرا على ما وقر فى نفوس البعض من العلم الدينى فحسب - وأن كان فى القمة - كلا . فإن العلم الذى عناه الإسلام إنما هو العلم بمفهومه العام ، ومدلوله الشامل، الذى تضم مسائلة جميع الأصول والفروع فى شتى العلوم والمعارف ، سواء منها : الإلهية والانسانية والمادية بكل مشتقاتها وألوانها .

وليس هناك من قيد على الإنسان فى طلب ذلك، إلا قيد الالتزام العلمى،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦.

(٢) سورة المجادلة : ١١.

والموضوعية المحايدة ، ثم من قبل ذلك ومن بعده، قيود الحق والخير والعدل والفضيلة والقصد والإنصاف، على أن تكون الغاية منه معرفة الله، والقرب منه بمعرفة أسراره فى كونه، ونواميسه فى خليقته .. وأن يكون من وراء ذلك هدف عام يعود على الانسانية كلها بالخير والرفاهية والتقدم، وتحطيم كل أغلال القصور، وقيود التخلف ، وتأكيد السيادة التى أرادها الله للإنسان على الكون [1].

ومن هذا المنطلق فإن الإسلام فتح الآفاق أمام الناس جميعا إلى علوم الدين والحياة.. وإذا كان الإنسان يمثل محور الدائرة ارتكازها إلا بقدر ما هو خليفة لله فى الأرض. حمل الأمانة التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال. وكلفه الله باستعمار الأرض، وسخر له الطبيعة، وهيأ له السبل لتسخير كل طاقاته فى تمهيد ما خلقه لخدمة الانسانية، وهذا كله مرتبط بالغاية النهائية التى لا غاية بعدها، وهى الله ، جماع كل القيم، والمثل العليا ، ولذلك لم تكن الحضارة الإسلامية حضارة باغية ولا عادية، ولا كانت حضارة مادية ممعنة فى ماديتها، وإنما كانت حضارة انسانية - إن صح التعبير- بالقدر الذى هى فيه تجسيد لنشاط الإنسان العلى وفعاليته فى نواحى الحياة من سياسية، واجتماعية ، واقتصادية .. فكانت حضارة إنسانية إلهية لا عنصرية متعصبة تسع الإنسان أينما كان ، ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [2].

وقد حمل المسلمون هذه الأمانة بمسئولية واعية. وكانت نتيجة ذلك نهضة

---

(١) الدين والحياة نشرة رقم ١٠٨ ص ٥.

(٢) سورة المائدة : ٣٢.

كبرى فى كل مجـالات العلوم ، ومظاهر النشاط الفكرى ، والعلمى للانسان فى حياته المادية ، والروحية على السواء. وقد شملت هذه النهضة جميع فروع العلم والمعرفة على اختلافها (١) .

فاذا كانت الحضـارة لا تقوم إلا بالعلم، فإننا نجد أن الإسلام قد دفع مـعتنقيه الى طلب العلم من المهد إلى اللحد .. ولم يقـبل من مؤمن أن يرضى بغير العلـم، ويقبع فى ظلام الجهل، بينما الآخرون يجدون فى طلبه .. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(٢).

جاء هذا فـى سياق الاسـتفـهام للدلالة على أن الأولين بـلغوا أعلى مـعارج الخيـر، وأن الآخرين درجـوا فى دركات الشر، ولا يخـفى ذلك على منصف ولا مكابر.

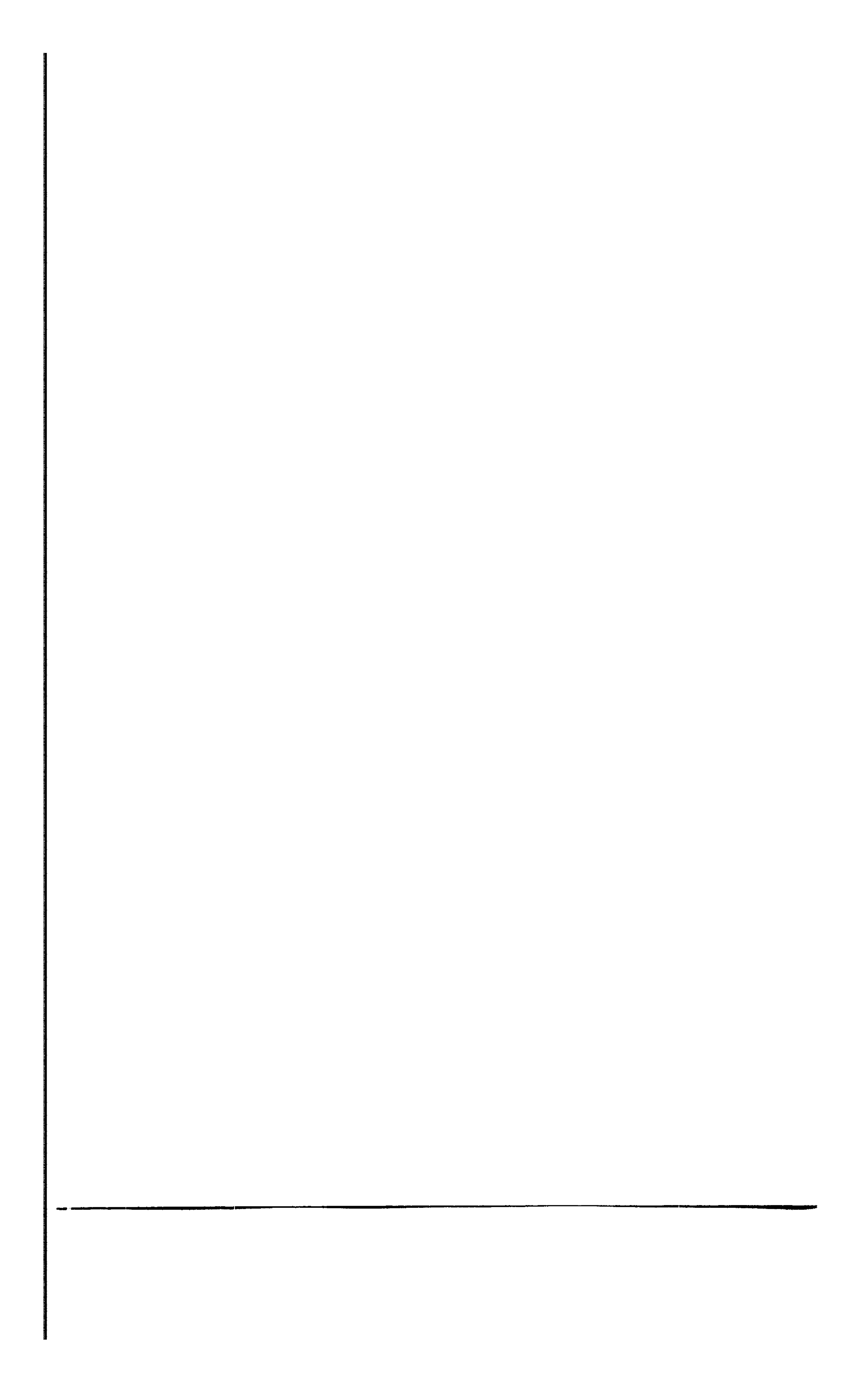
وفى هذا المعنى يحدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه فـيقول : قال رسول الله ﷺ : « ان مـثل العلماء فى الأرض كـمثل النـجوم يهـتدى بهـا فى ظلمات البـر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»(٣).

---

(١) نداء الإسلام الجزء الثانى ص ٨٠- ٨٢.

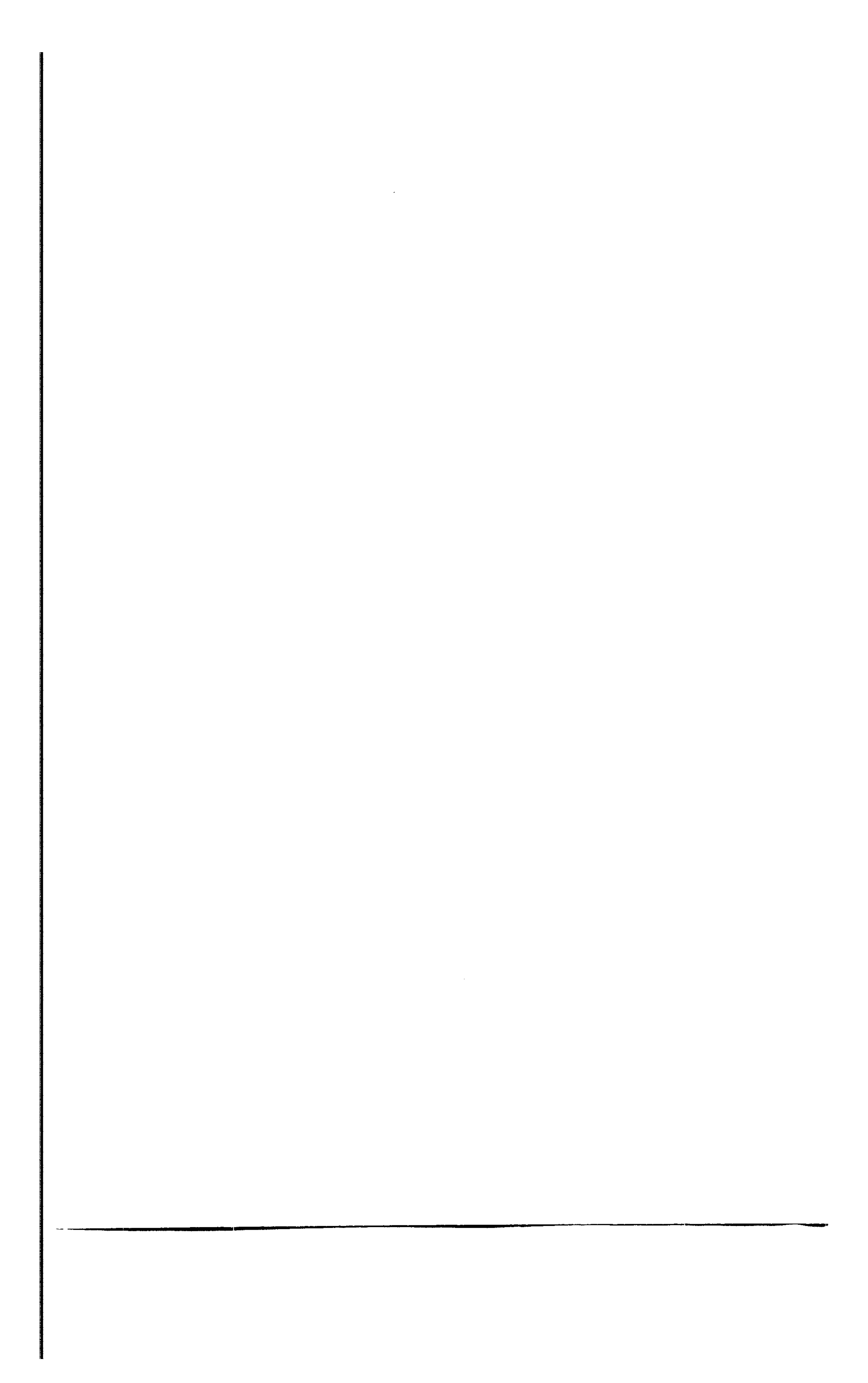
(٢) سورة الزمر : ٩ .

(٣) رواه أحمد - الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٤.



نظرة الإسلام

إلى العمل



نظرة الإسلام إلى العمل

الإسـلام ينظر إلى العـمل نظرة تقديس واجـلال .. والقرآن الكريـم يدعـونا إليـه، ويحـثنا عـلى الإخـلاص فى العـمل : ﴿وَقُلِ اعْـمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَـمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] .. وقد اسـتعاذ الرسول الكريم ﷺ من العـجز والكسل فقال : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل..»[2].

والرسول عليه الصلاة والسلام لا يسـتعيذ إلا من أمر عظيم ، سيء الأثر فى حيـاة الأمة.. على أن الصلة وثـيقة فى الإسـلام بين العلم والإيمان والعـمل، فإذا كان العلـم يثبت الإيمان، فإن العـمل يجيء بعد ذلك تطـبيقـا وتجسيـدا لما آمن به المرء، واعتنقه من مـبادئ ، فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقـر فى القلب وصدقه العمل.. ومن ثم فان الإسلام يستنكر ما قد يحدث من خلل وتناقض بين ما يعلنه الإنسان من شعار يؤمن به فى حياته وبين أعماله.﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝﴾[3].

وجوب العمل بالعلم :

والقـرآن بعد ذلـك يؤكد أن المؤمن الحق هـو الذى يعطى لحيـاته ولا ينعـزل عنها.. ولذلك فـان رسول الله - ﷺ - كـان يضرب لنا أروع الأمثـال فى القدوة الحسنة فى الـعمل بالعلم وأخذ الـنفس به، فإذا أمر بخـير كـان أول آخذ به، وإذا

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٥ .

(٢) رواه مسلم وغيره .

(٣) سورة الصف : ٢، ٣ .

نهى عن شر كان أول منتـه عنه، بل كان كثيرا مـا يعوذ بربه من علم لا ينفع ومن قول لا يشفع بعمل .

أجل .. إنه لا خير فى علم لا يتـبعه عمل. فإن الانسان الذى لا يقـترن عمله بعلمه، إنسـان يقدم الخير لـغيره وينسى نفسـه، تماما كفـتيلة المصباح تحـترق وهى تقـدم الضوء للآخـرين. الأمر الذى عـاذ منه النبى ﷺ ، ويجب أن يعـوذ منه كل مؤمن.

وقد روى الطبـرانى فى الكبير عـن جندب بن عبد الله الأزدى قـال : « مثل الذى يعلم الناس الخـيـر وينسى نفسـه، كمـثل السـراج يضىء للناس ويحـرق نفسه»[1].

وجاء فى تفسـير قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبـر وتنسون أنفسكم﴾ أن أهل الكتـاب من الأحـبـار والرهبـان كـانوا يأمـرون النـاس بطاعـة الله تعـالى، وينهونهم عن معصيته، وهم يفعلون ما ينهون عنه .

وقد عبر عن التـرك بالنسيان للمبالغة فى عدم المبالاة، والغـفلة عما ينبغى أن يفعله الإنسان. والمعنى إذا كنتم موقنين بوعـد الكتاب ووعيده على تركه، فكيف نسيتم أنفسكم؟

والخطاب وإن كان مـوجها إلـى اليهود فـهو عبـرة لغيرهم . فلـتنظر كل أمة أفرادا وجـماعـات فى أحوالهـا، ثم لتحـذر أن يكون حالهـا كحال أولـئـك القوم فيكون حكمها عند الله كحكمـه، فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح،

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٢٦-١٢٧.

لا على صنف خاص من الشعوب والأفراد [1].

وانطلاقا من شعور الإنسان بواجبه نحو ذاته، فإن الله سبحانه يوم القيامة يوقف الخلائق بين يديه، فيسأل كلا منهم على رءوس الأشهاد ماذا عمل فيما علم، فان كان موفيا نجا وإلا أوبقه تقصيره، فزج به فى النار.

وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول : « إنما أخشى من ربى يوم القيامة أن يدعونى على رؤوس الخلائق فيقول لى : يا عويمر، فأقول : لبيك ربى . فيقول: ما عملت فيما علمت »[2].

واذا كان هذا هو موقف الإسلام من العمل، ومبلغ حضه عليه، فما هو تحديد لمفهومه ؟

ومفهوم العمل فى الإسلام هو أنه العمل الذى يؤدى إلى تعمير الحياة لصالح الناس كافة : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3].وقد بات واضحا أن نظرة الإسلام إلى العمل أعم وأشمل مما يراه الاقتصاديون، ذلك لأن منفهوم العمل عندهم يدور على محور مادى بحت ، فقد أعطوا المنفعة جل اهتمامهم مما جعله حركة ميكانيكية فارغة من القيم، خالية من المثل والمعانى. أما الإسلام فانه يأخذ فى الاعتبار الأول الأمور الآتية :

أولا : أن العمل فى مفهومه كما يشمل الأعمال البدنية فى الزراعة والعمارة، والتجارة، والصناعة مثلا يشمل أيضا الأعمال القلبية كالغضب والرضى ،

(١) تفسير المراغى جـ ١ ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) الترغيب والترهيب جـ١ ص ١٢٦.

(٣) سورة هود آية : ٦١.

والحب والكراهية ، والحقد، وحب الخير للناس إلى غير ذلك مما يقع فى الشريعة الإسلامية تحت مسئولية الإنسان ، ويستحق من أجله إما الثواب أو العقاب، ويتضمن مفهوم العمل فى الإسلام كذلك الأعمال الفكرية، والعقلية، مثل أعمال التخطيط والتصميم ومثل التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض.

ثانيا : أن الاسلام يعتبر فى تقويمه للعمل النية، فإذا كانت النية طيبة كان العمل طيبا، وإن كانت النية خبيثة كان العمل خبيثا. وقد قال رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ».

وقد قال الله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾(١).

ثالثا : أن عقد العمل فى الإسلام وإن قام بين صاحب العمل والعامل فإن ميثاقا آخر أغلظ وأوثق قام بين العامل وبين المولى عز وجل الذى يراقب أعمال العباد ويحدد لها الجزاء ويكشف عن نواياهم ومكنون أسرارهم فى أعمالهم مهما أظهروا - خلاف ما يبطنون - أو موهوا على الناس وأوهموهم بأنهم مخلصون فيما يعملون (٢).

ومن هذا كله يتبين الفرق الواضح بين ما للنظرة الإسلامية من أثر فى محيط المجتمعات الإنسانية، وبين ما للنظرة الاقتصادية الحديثة فى ذلك.

فان الاقتصاد الحديث لا يعنى الا بالجانب المادى فحسب، ولا يقم وزنا للقيم

---

(١) سورة الزلزلة : ٧، ٨.

(٢) العمل فى الإسلام للدكتور / محمد عبد الرحمن بيصار مجلة الوعى العدد ١٣٠/ ١٩٧٥.

الروحية والمبادئ الإنسانية، والعلاقات الودية القائمة بين الناس على الاحترام المتبادل، والحب والتعاون بين الناس. فى حين أن الإسلام يطبع المعاملات بطابع إنسانى أخلاقى ، فاعتبر النية الخيرة هى المعيار الأول فى تزكية العمل ،« والله تعالى طيب لا يقبل من العمل إلا طيبا»،« ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»،« والكلمة الطيبة صدقة.. وإماطة الأذى ، والعظم والشوك من الطريق صدقة.. وافراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة.. ورؤيتك للرجل الردىء البصر صدقة».

مكانة العمل فى الإسلام :

ولا شك أن العمل هو الحياة وبه يتوصل المرء إلى سعادته فى الدنيا والآخرة. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾[١]. وأيا ما كان العمل فهو شرف.. والإنسان العامل جدير بالاحترام والتقدير ما دام يبذل قصارى جهده فى أداء عمله، ولا يدخر وسعا فى اجادته واتقانه.. ومن مظاهر تكريم الإسلام للعمل والعاملين أن رسول الله ﷺ :« جاءه رجل ذات يوم فمد الرسول يده ليسلم عليه، ولكن الرجل منع يده عن السلام، فسأله الرسول لم منعت يدك عن السلام، فأجاب الرجل يارسول الله يداى خشنتان وأخشى أن تؤذياك، فسأله الرسول: ومم . فأجاب الرجل : من أثر العمل يارسول الله، فإذا برسول الله يرفع كلتا يدى الرجل ويقبلهما قائلا : كفان يحبهما الله ورسوله).

(٢) سورة النحل آية : ٩٧.

وان الوصايا النبوية تتجه إلى الحض على العمل ، والسعى فى طلب الرزق من طريق حلال ، ولقد قرر النبى ﷺ أن من الذنوب ما لا يكفره إلا السعى فى طلب الرزق.. والعمل مطلوب ، وليست فائدته على العامل وحده، وإنما فائدته على الجماعة كلها .. فالعامل الذى يفلح الأرض لتثمر الثمر وتنبت الزرع إنما يقدم للمجتمع خيرا عظيما.. وهذا الذى يبنى الدور إنما ينشىء بيديه القويتين مأموى لأخيه الإنسان.. وهذا النساج الذى ينسج الثوب والغزال الذى يعزل أو يقف على الآلة الغازلة كل منهم يسهم بما يقدمه من عمل يعود خيره ونفعه على الأمة كلها. وإن العامل بعمله هذا يؤدى واجبا دينيا له ثوابه عند الله تعالى ، فعليه فى كل يوم من أيام عمله عند ابتداء العمل أن يحتسب النية الطيبة، وليطلب الثواب من الله تعالى ، فإنه فى عبادة مستمرة إن أخلص لله فى عمله، وأخلص للجماعة فى تصرفه ، والرسول ﷺ يقول : « ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

والعبادة فى الإسلام ليست مقصورة على الصلاة والصوم والحج وغيرها مما تكون العلاقة فيه بين العبد وربه ، بل العبادة فى الاسلام أعم وأشمل ، حتى إن إزالة الأذى من الطريق تعد صدقة كما صرح النبى ﷺ ، ولقد قال عليه السلام : «الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» وقد قال عليه السلام لأبى ذر الغفارى : « افراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك

والعظـام عن طريق الناس لـك به صـدقــه، وهدايتـك الرجل فى أرض ضـــالة صدقة»[1].

والعامل فـى كل باب من أبواب النفع يقوم بفـرض كفـاية يجب تحقـقه ولو ترك كان على الجماعة كلهـا مغبة تركه بالنسبة للمجـتمع ، وعليها الاثم أمام الله إذا قصـرت فى اقامة فرض كـفاية، ويرفع الإثم عنهـا جميعـا بالقيام به ويشـترك الجميع فى الوزر ان قصروا فيه [2]. ومن ثم أقام الإسلام « نظام الدولة» لتحقيق التكامل الاقتـصادى للأمة وتوجـيه الأفراد توجـها دقيـقا يكفل للجمـاعة المؤمنة ماهى بحـاجة اليـه من مطالب الحيـاة ، وجعل لإرادة الدولة احـترامـها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3]. ولكن هل طاعة أولى الأمر مسألة مطلقة ؟ ونجـد الجواب فى خطاب أبى بكر الصديق يوم ولايته إذ قال لمن بايعه : « أطيعـونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيـته فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

ولعله يصبح واضـحا أن العمل الذ يتطلبه الدين هو عـمل شاق ، يؤكد هذا قـول الله تعالى فى سـورة البلد : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[4]. وقوله فى سورة الانشقاق: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[5]. ومن هنا قرن الله العمل بالجهاد فى قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ

(١) التكافل الاجتماعى فى الإسلام للأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة ص ٥٠ - ٥٣.
(٢) المرجع السابق ص ٥٣.
(٣) سورة النساء آية : ٥٩.
(٤) سورة البلد آية : ٤.
(٥) سورة الانشقاق آية : ٦.

مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١).

واعتبر الرسول ﷺ كل عمل صالح من الجهاد.. فحين خرج عليه رجل قوى البدن مفتول العضلات قال بعض أصحابه : لو كان هذا فى سبيل الله (أى لو كان يرسل للحرب) فأراد الرسول أن يصحح لهم مفهوم الجهاد فقال : « أيها الناس : إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على ولد صغار فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ».

وجعل من العمل وسيلة للمغفرة إذ قال صلوات الله وسلامه عليه:« من أمسى كالا (أى متعبا) من عمل يده بات مغفورا له ».

واذا كان العمل من الجهاد فإنه فى ظروفنا الراهنة على الأخص من أفضل الجهاد لأنه المنطلق لتحرير الأرض السليبة وبناء مجد الأمة ودفعها قدما نحو حياة أفضل ومستقبل زاهر بإذن الله .

حوافز العمل .. ورعاية العاملين :

الاسلام يعمل على راحة العاملين ، وتسهيل أسباب السعادة لهم فى هذه الدنيا ماداموا عاملين ، يؤدون العمل بإتقان، ويراقبون الله فى أدائه، فإن فعلوا ذلك، فان من حقهم أن يحصلوا على أجرهم كاملا غير منقوص عملا بقول رسول الله ﷺ : « أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه» وقوله عليه السلام: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. وذكر منهم رجلا استأجر أجيرا فاستوفى منه

(١) سورة الزمل آية : ٢٠.

ولم يوفه أجره».

وفوق ذلك فان للعامل حقوقا أخرى كفلها الإسلام له .. فإذا كان لا يستطيع مئونة الزواج فعلى ولى الأمر أن يزوجه، وأن يسكنه فى مساكن يليق به إذا لم يكن له مسكن.. وقد روى الإمام أحمد أن النبى ﷺ قال : « من ولى لنا عملا وليس له منزل ، فليتخذ منزلا ، أو ليست له امرأة فلتزوج أو ليست له دابة فليتخذ دابة» وكل ذلك بلا ريب من بيت مال المسلمين،لأن الراحة التى ينالها العاملون توفر خيرا على الجماعة الإسلامية .

وعلى الأمة ممثلة فى أولى الأمر أن تتدخل لإنصاف المظلومين منهم وإن لم تفعل تكن مقصرة فى أداء واجبها[1] . وقد كتب الإمام على رضى الله عنه إلى أحد ولاته يقول له :

(اسبغ على عمالك الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وعنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك).

فرعاية حقوق العاملين حافز لهم على إتقان أعمالهم، وضمان لإخلاصم فيها ليستحقوا فوق ما يتقاضون من أجر مادى فى هذه الحياة وما أعد الله لهم من ثوا وأجر فى الآخرة، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2].

---

(١) التكافل الاجتماعى ص ٥٢.

(٢) سورة يونس آية : ٦١.

وكمـا يبين الاسلام واجبـات العاملين وما لهم من أجـر وجزاء، ويضع لهم حقوقهم المادية، ويسهر على راحتـهم وتأمينهم فى حياتهم، فإنه مع ذلك لا يغفل أيضا حقـوقهم المعنوية، التى تحفظ عليهم حـياتهم وصحتهم، فـان لبدنك عليك حقا كمـا يقول الرسول الكريم . ولقد قال الله تعـالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. ومن ثم فالتكليف بالعمل ينبغى أن يكون فى دائرة الطاقة.

والقاعدة الشرعية أنه لا تكلف إلا بالمسـتطاع ، وما يمكن الاستمرار عليه من غير جهد، ولذلك يقول النبى ﷺ : « عليـكم بالأعمال بما تطيقون فان الله لا يمل حتـى تملوا»، وان الأعمـال الدائمة أحب إلى الله، وإن كـانت قليلة من الأعـمال الكبـرة التى تجهـد ولا يمكن الاسـتمـرار عليـها، ومن ثم قـال النى ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وقال : « إن الله يحب الديمة من الأعمال».

وفى ضـوء هذه النصـوص نسـتطيـع أن نقـرر أن الإسـلام يتـجـه فى تنظيم الأعـمـال الى أن يكون تكـليف العـامل مـقـيـداً بكونه فى طـاقـتـه، وأنه ويمكنه الاستمرار فيه، فلا يكلـف أقصى الطاقة حتى لا يضعف ولا يرهق.. ولذلك يبرر الإسلام تقييد ساعات العمل بزمن محـدود يستطيعه العامل ويستطيع الاستمرار عليـه من غيـر إجهـاد، وذلك يختلف باخـتلاف الأعـمال وباخـتلاف الأحـوال، وباختلاف الأمان[1].

وقد كفل الإسلام للعامل حق التأمين إذا عجـز عن العمل، أو تقاعد لبلوغبه السن القانونية، وعلى هدى ذلك وضعت قوانين التأمين والمعاشات .

---

(١) التكافل الاجتماعى ص : ٥٦.

وروى عن خالد بن الوليد حين صالح أهل الحيرة - من بنود الصلح كفالة كل عامل ضعف عن العمل ككبر أو مرض أو كارثة قوله : وجعلت لهم أيما شيخ (أى عامل) ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنا فافتقر، وصار أهل دنية يتصدقون عليه، طرحت جزيته ، وعيل - من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام .

ويروى عن عمر بن الخطاب - وذلك تطبيقا لمبدأ ضمان الدولة لحياة العامل وذريته- أنه خرج يوما إلى السوق، فلحقته امرأة شابة، فقالت : (يا أمير المؤمنين هلك زوجى وترك صبية صغارا، وما ينضحون كراعا (وذلك كناية عن ضعفهم عن الكسب والعمل) ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت عليهم الضيع وأنا ابنة خفاف بن أيمن الغفارى، وقد شهد أبى مع رسول الله الحديبية، فوقف معها عمر ولم يمض وقال : مرحبا بنسب قريب. ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطا فى الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاما وجعل بينهما نفقة وثيابا، ثم ناولها خطامه وقال : اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

وبهذه التشريعات الحكيمة العادلة كفل الإسلام للعاملين حقوقهم ورفع منزلهم، وبوأهم المكانة اللائقة بهم لكى يسعدوا وتسعد بهم الأمة، وهو من البر الذى يحبه الله لعباده، ويرغب لهم أن يتعاونوا عليه : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1]. وهذا معنى التكافل الحضارى وأكبر ضامن لتطور الحضارة الإنسانية نحو الأكمل والأفضل والأسعد.

---

(١) سورة المائدة آية : ٢.

القيم الروحية وأثرها في الحياة

من أهم النظريات الفلسـفـية التي تعنى بدراسـة الإنسـان ، هي تلك النظرية التي تقول : إن منبع الحياة هو الروح ، أو الشخصية الداخلية للإنسان .. وأن هذه الشخصيـة الداخلية هى أصل الحياة البشرية بالرغم من عدم خـضوعها للرؤية .. وأن هذه الشخصية الداخلية هى التى تصلح الحـياة كلها ، وهي التي تفسد الحياة كلها .

ومعني ذلك أن الوجـود الإنساني كله لا يوجد ولا يرتقي إلا بإحيـاء المعاني الروحية وإشاعتهـا وذلك مثل رؤية المناظر الخلابة التي ترقق الإحساس ، وتجلب النشوة ، وتنقـل الإنسان إلى عالم آخـر بعيدا عن عـالمه المادي إلى مقـام وجداني حيث الحب والاتحاد والطهارة النفسية والقلبـية ، إلى حيث لا حقد ولاكراهية .. وبذلك يوجـد ذلك الإنسان الذي يتـبع أحسن السـبل في أنشطتـه اليومـية ، ولا يلتفت إلى الأساليب الحقيرة الوضيعة في معاملاته ..

وهذه الروحـانيـة - في زعـمهم - يمكـن أن يتذوقـهـا إذا اسـتطاع أن يقطع شعـوره بالعالم المادي ويركزه على العالـم الباطني ، فإن هناك دنيا واسـعة داخل الوجود الإنساني ، كالدنيا الواسعة خارج وجوده ، وهذه الدنيا الداخلة هى روح الإنسـان . والروح بحـر من نوع خاص .. وهو كـون عظيم الاتسـاع وغـاية في الهدوء .. إن الإمـعان في هذا الكون الداخلي يبـعد الإنسان عـند ضجيج الحـياة المادية ،أو على الأقل يقلل من أهمـية هذه القضايا الـتي تحاصر حيـاة الإنسان في كل حين ، فإنك لو جعلت الناس يغطـسون في بحر الروحانية فإنهم لن يلتـفتوا

إلى ضجيج الساحل ، وإن نزلوا الساحل فإنهم سيكونون مبتلين بمياه المحيط الورحاني : الأمر الذي سيكون ضمانا في حد ذاته أنهم سوف يؤدون واجباتهم علي نحو أفضل من الآخرين الذين لم يتمتعوا بتلك التجربة [١].

والذي هداهم إلى هذا التفسير هو أن الروح التي هي أصل المجموعة الإنسانية تتغذى بالشعور وتتمتع بالوجدان ، فيجب أن تكون الاستجابة لنداء الروح بالأسلوب الشعوري .. وهذا لعمري كلام نظري ، لأن هذا الشعور الذي يغمر الإنسان سرعان ما يذهب وينتهي ويزول فضلا عن أنه لا يستوعب الوجود كله ..

ولقد استطاع النبي العربي أن يوصلنا إلى المركز الرئيسي الذي ترتكز عليه روح الإنسان ، وأن يقدم التحليل الدقيق للحركة الإيمانية ..

وذلك حيث يقول ﷺ : « ألا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب[٢] ».

فإنك لو تمكنت من إصلاح القلب ، فكأنك قد وضعت يدك على لوحة المحولات في مصنع الإنسان . وإن أخفقت في وضع اليد عليه فقد فشلت في الحصول على أي شيء رغم سيطرتك الظاهرية على كل شيء ، وإذا صلح القلب استيقظت الفطرات النائمة ، وارتبط الإنسان بربه ، وتحركت الجوارح والأحاسيس في مواضعها المحددة وأدت وظيفتها علي الوجه الأكمل ..

(١) الإيمان والحركة الإيمانية لوحيد الدين خان ص ١١.
(٢) رواه مسلم في باب المساقاة : ٥/ ٥٠ ، ٥١.

فلا يحيد عن الحق وينمو في داخله الإحساس بالهدف ، وتضيء في قلبه ضوء المعرفة ، ويسعى جاهدا في محاولة جادة لتكميل ذاته ، حتى يصبح هو نفسه حارس ذاته ، وحتى يسيطر عليه همته لإصلاح نفسه إصلاحا جذريا..

ونحن نريد أول ما نريد لإصلاح ذواتنا بل ولإصلاح الحياة كلها من حولنا ، هذه اليقظة الروحية .. نريد نفوسا حية قوية فتية ، وقلوبا جديدة خفاقة ، ومشاعر غيورة ملتهبة مضطربة ، وأرواحا طموحة متطلعة متوثبة تتخيل مثلا عليا ، وأهدافا سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل إليها . ولابد من أن تحدد هذه الأهداف والمثل ولابد من أن تحصر هذه العواطف والمشاعر ولابد من أن تركز حتى تصبح عقيدة لا تقبل جدلا ولا تحتمل شكا ولا ريبا . وبغير هذا التجديد والتركيز سيكون مثل هذه الصحوات كمثل الشعاع التائه في البيداء لا ضوء له ولا حرارة فيه ..

وأن الواجب العام والدائم على عاتق المؤمنين هو إحياء الحقيقة الأساسية في هيكل الدين ، والتصدي لكل النظريات الخاطئة التي ظهرت في العصور الأخيرة في الفكر المعاصر ، وأثرت تأثيرا متفاوتا في كافة العلوم الحديثة ، وهى باسم العلم والفلسفة الجديدة ، تتحدى صلاحية الإسلام ، وترميه بالتخلف والجمود تارة وتشكك في حقيقته تارة أخرى .

إنها تدعي أن تصورات الله والدين محض خديعة ، ولا حقيقة وراءها .. وهذا هو الجهاد المقدس .. إنه الكفاح العام لأجل الدين .. وبسببه نستحق نصرة الله وعونه وتأييده .. ونصرة الله هى التي تفتح السبيل داخل أحلك الأحوال القاسية ، وباستغلال هذه السبل ينتهي أهل الإيمان إلى الهدف .

.. وهو أن يصـبحـوا مندوبين عن الله .. ينشـرون دينه في كل كل ركن من أركان المعمورة حتى لا يحرم أحد من الهداية .. وأن يتذكر الناس من جديد هذه الصلة التي تربطهم بالله تبارك وتعالى ، والتي نسوها فـأنساهم أنفسهم ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[1] وهذا في الحقيقة هو المفتاح الأول لمغاليق المشكلات الإنسانية التي أوصدها الجمود والمادية في وجوه البـشر جمـيعا فـلـم يستطيعـوا إلى حلها سبـيلا وبغـير هذا المفتـاح فلا إصلاح ..

االطريق إلى الإيمان :

ما هو الإيمان ؟ إنه في كلمة واحدة : اكتشاف الإنسان لله [2] .

والقرآن حينمـا أراد أن يرشد الإنسان إلى الله (الخالق) ، كـان هدفه الهداية إلى معرفته بآثاره الدالة على صفاته ، وكماله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه، أو الاتحاد ، أو الحلول في شـيء مما خلق ، وأوصد أمامـه باب التطلع إلى معـرفة حقيقته وذاته تعالى ،وصرفه عن محاولة التفكير في هذا الجانب :

﴿ذلـكُمُ الـلَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [3] .

وقص علنا القـرآن أن موسى عليه السـلام طلب من ربه أن يريه نفسـه لينظر إليه ، فقال له : ﴿لن تـرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي

(١) سورة البقرة آية :٢١ .
(٢) الإيمان والحركة الإيمانية ص ٧ .
(٣) الآيتان ١٠٣، ١٠٤ من سورة الأنعام .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

ومن هنا كان العجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وكان في الوقت نفسه برهانا على سمو الألوهية الحقة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود بطبيعته ، الذي لا يجد مجالا لتخطي ما وراء الكون الذي يتناوله ، وتجري فيه مقارناته ، واستنباطاته ، وكان الإرشاد إلى معرفته ، وإلى الإيمان بوجوده من جانب النظر في آثاره ، من نفسه حينما يتحرر من سلطان الوهم والهدى وينفلت من حكم المادة المظلمة ، أو عندما يفاجأ بالسؤال عن مصدر هذا الكون ،أو عندما تنزل به شدة تحيط به ، ولا يرى فيما يقع في حسه طريقا للخلاص منها (٢) .

وفي سبيل ذلك يقول القرآن : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم** ﴾(٣) ، ﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾ (٤).

ورضي الله عن جعفر الصادق ، فقد جادله بعض الزنادقة في وجود الله ، فقال جعفر : هل ركبت البحر ؟ قال نعم ، قال هل رأيت أهو اله ؟ قال بلى :

---

(١) الآيتان ١٤٢، ١٤٣من سورة الأعراف .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ص ٣٥-٣٩.

(٢) الآية ٩ من سورة الزخرف .

(٤) الآية ٣٢ من سورة لقمان .

هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن وأغرقت الملاحين ، فتعلقت أنا ببعض ألواحها ، ثم ذهب عني ذلك اللوح ، فإذا أنا مدفوع بتلاطم الأمواج حتى دفعت إلى الساحل . فقال جعفر ، قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ، ثم على اللوح حتى ينجنك ، فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك ؟أم كنت ترجو السلامة بعد ؟ قال : بل رجوت السلامة .. قال جعفر : ممن كنت ترجوها ؟ فسكت الرجل . فقال لجعفر : إن الله هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت وقد أقر به قلبك عند الشدة ، وإن أنكره لسانك عند النجاة ، وهو الذي أنجاك من الغرق ، قال تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا** ﴾[1] فأسلم الزنديق وحسن إيمانه بالله .

وهذا الكون بما فيه من دقائق وعجائب إنما هو في الواقع كتاب مفتوح لذوي العقول والبصائر ، كيف وجد .. وإلى متى وما حكمته وغايته .. لقد أحكم الله صنعه وأبدع نظامه وأجري نواميسه على مقتضى الحكمة والنظام والإبداع ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[2] .

رفع السماء بغير عمد ترونها . وجعل الجبال أوتادا والأرض مهادا ، وشق البحار والأنهار وسخر الفلك تجري في البحر بأمره . وأرسل الرياح لواقح وأنزل من السماء ماء بقدر . وسخر ذلك لكه للإنسان الذي هو نفسه خلق من خلق الله وأثر على قدرته .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٤٠ من سورة يس .

فإذا ما نظر الإنسان إلى هذه المخلوقات ،وتأمل بفكره في صنع هذه الأفلاك وتلك الكائنات .. ربما تجلت له بعض الحقائق ووصل إلى الحقيقة الكبرى التي هي مصدر النعم والخيرات . وصدق الله إذا يقول : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [١] .

قال سقراط شيخ فلاسفة اليونان : هذا العالم الذي يظهر لنا على هذا النحو لم يترك شيء فيه للمصادقة . بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية . وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة .

والطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال علي وحدانية الصانع الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال بدون أي خطأ ، وهو عالم قادر ومن المستحيل إدراكه بالحواس فهو كالشمس التي تمس جميع الأبصار لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها .

أقول : لو أعمل الإنسان عقله وتفكيره في نفسه مم خلق ولأي شيء خلق . ونظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لصفت روحه واستنار عقله ووجدانه وآمن برب هذا الكون .

وهذا ما أرشدنا إليه القرآن الكريم في قول الحق جل وعلا :

﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل و النهار لآيات لأولى

---

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس .

الألباب ، الذيـن يذكرون الله قيـاما وقـعودا وعلى جنوبهم ويتـفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [١].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : لما نزلت هذه الآية على قلب النبي عليه الصلاة والسـلام قام يصلي فأتاه بلال يؤذن بالصـلاة فرآه يبكي فقـال : يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال يا بلال لقد نزلت على الليلة آية ﴿ إن فـي خلق السمـوات والأرض .. الآية ﴾ ويل لمن قـرأها ولم يتفكر فيها .

وفي الأثر عن رسول الله -ﷺ- : « فكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله ، فإنكم لن تقدروا قدره » ...

لذلك كان العلمـاء والمفكرون والفلاسفـة يتجهون بأفكارهم وعـقولهم إلى الله عن طريق النظر فـي الكون وما فـيـه من عجـائب وآيات تشـهد بجـلال الله وعظمـته ومن ثم فإن الـتفكر عبـادة بل أعظم عـبادة : ﴿ إن في خلق السـموات والأرض واختـلاف الليل والنهار والفلك التـي تجري في البحـر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السـماء من ماء فـأحيا به الأرض بعد مـوتها وبث فيـها من كل دابة وتصـريف الرياح والسـحـاب المسـخـر بين السـمـاء والأرض لأيات لقـوم يعقلون﴾ [٢]، ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [٣] ، ﴿ وفي الأرض قطع متـجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغـير

(١) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .
(٢) سورة البقرة آية : ١٦٤ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٢٠، ٢١ .

صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

وهكذا نرى في استعراض عجائب الكون والطبيعة ما يدعو كل عاقل إلى الإيمان بالله ، بل إن الإنسان لو نظر إلى نفسه وما فيها من دقة تركيب منذ أن كان نطفة ، وما صحب ذلك من تحركات مختلفة لآمن برب الكون ونطق بوحدانية الخالق ، وصدق بيوم البعث والجزاء كما قال سبحانه : ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمه شيئا ﴾[2] .

تأمل سيطرة المخ على سائر أعضاء الجسم ، وتأمل حركة القلب ونبضه في دقة دون توقف . تأمل عدسة العين التي بها الإبصار وهى تلقي صورة على الشبكية وهى طبقات عشر منفصلة وهى في مجموعها ليست أكبر سمكا من ورقة دقيقة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعداد ومخروطات تبلغ الملايين عدا. تأمل المعدة وهى تتلقى كل ما ترسله إليها من طعام وشراب على اختلاف أنواعه وأصنافه وعديد عناصره . فتتحلل كل هذه الأنواع تحليلا كيمائيا في أكبر معمل كيمائي من صنع الله ، وتوزع إلى مواد تصلح لكل خلية فردية مستمرا وبانتظام وبالنوع الذي تحتاجه كل خلية لتحوله بدورها إلى عظم ولحم

(١) سورة الرعد آية :٤ .
(٢) سورة الحج آية : ٥ .

وظفر وشعر .. إنها معمل كيميائي ينتج من المواد المختلفة أكثر مما ينتجه أي معمل يبتكره ذكاء الإنسان ، وأن نظام التوريد والتوزيع أدق من أي نظام عرفه العالم ووصلت إليه البشرية في أزهى عصورها ، فهل وجد كل ذلك مصادفة من تلقاء نفسه أم هو تقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه وهو على كل شيء قدير ؟ !

ومن هنا فإن التفكير في عظمة الخالق وعجائب المخلوقات سبيل إلى المعرفة الحقة ، وطريق إلى العمل الصالح الذي يصنع الحضارات ، ويبني الأمم الراقية في أخلاقها ومبادئها وقيمها ..

والسؤال الذي يثور الآن في هذه النقطة بالذات ، لماذا نرى المؤمنين متخلفين؟ والشعوب المتدينة هى التي تعاني من شظف العيش والحرمان .. وهذا هو واقع المسلمين ..؟ والحقيقة أن العيب ليس في الدين نفسه فإن هذا الدين لا يمكن أن يخلق أمة ضعيفة ، إذا أخذت هذه الأمة بقواعده ونظمه وذلك أن الإسلام كان ولا يزال بقيمه هو أبو الحضارات ، وهو الذي يصنع التقدم الحقيقي.. وعلى أي شيء يقوم التقدم؟ هل يقوم على الغش والنفاق والرياء والكذب وعدم العمل .. إن كل هذا نهى عنه الدين وكل هذا لا يمكن أن يقيم حضارة ، ولا أن يصنع تقدما أبدا .. بل إن أكثر دول العالم تقدما إذا أخذنا مجتمعها وجدنا أنها حولت القيم ، والمبادئ الموجودة في الدين الإسلامي إلى قيم حضارية تعيشها ، وأصبحت هذه القيم جزءا من المجتمع وجزء من الحياة .. الإخلاص في العمل .. إتقان العمل .. عدم الكذب .. الوفاء بالوعد [١] .

(١) قدرة الله مقال بجريدة أخبار اليوم ١٩/ ٣/ ١٩٧٦.

وفضلا عن ذلك فإن في العبادات الإسلامية أفضل ما يصل القلب بالله ، ويربي الوجدان والمشاعر والإحساس الدقيق ، وفي النظر الإسلامي ما يرقى بالعقول والألباب ويدفعها إلى كشف ستائر الكون ومعرفة دقائق الوجود . وفي الخلق الإسلامي ما يربى الإرادة الحازمة ، والعزيمة الماضية الصارمة ، وفي النظام الإسلامي في الطعام والشراب والمنام وتوابع ذلك من شئون الحياة ما لو اتبعه الفرد لحفظ جسمه من المهلكات وفواتك الأمرض ...

ولهذا حرم الإسلام الخمر وأنواع المسكرات والمخدرات ، وسائر المنكرات والفواحش .. ولم يقتصر على تحريمها ، بل حرم كذلك صناعتها وإعدادها،الإتجار بها بيعا وشراء ...

والمال الذي يأتي من هذه السبل لا يعده مالا حلالا . بل جميع المكاسب التي تدر الربح على بعض الناس وتضر بالآخرين أو بالمجتمع البشري-كالرشوة والسرقة والميسر - وصنوف المقامرة ، وجيمع المعاملات التي يخالطها الغبن والغش .. يراها الإسلام جرائم ويعاقب عليها .. كل ذلك هو من صلب مجتمعات الأمم المتقدمة [١]..

---

(١) معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام للأستاذ أبى الأعلى المودودي ص ٥٥-٥٦.

أثر الإسلام في الحضارة الأوربية

إن العرب بعد انتهائهم من التوسع ، وانشائهم دولتهم العربية- قفزوا قفزة كبيرة في محيط العلوم الدينية والإنسانية والتطبيقية ، كما يشهد بذلك تراثهم الحضاري الضخم الذي ما زال العالم يدرسه ويحققه وينشره ليفيد منه .

« ولم يكن العرب مجرد ناقلين عن الحضارات السابقة أو مقلدين لها ، بل كانت لهم أصالتهم وابتكارهم ، وكان لهم طابعهم الخاص وشخصيتهم البارزة، وقد برهنت العلوم التي خلفوها في شتى المجالات على مدي ما بلغوه من رقي وحضارة .

فحضارة العرب متميزة عن الحضارات الأخرى .. وفي ذلك يقول الدكتور جوستاف لوبون : « لقد أنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة ، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ، ولغتهم ، وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود الذين رضوا أيضا بمعتقدات العرب وعادتهم وفن عمارتهم .. ويقول أيضا : إن الأمم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير أطلال وصارت أديانها ولغاتها وفنونها ذكريات ، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية .

ولا شك في أن العرب انتفعوا ببعض ما وجدوه صالحا في الحضارات السابقة ولكن هذا لا يطعن إطلاقا في قدرات العرب الخلاقة وطاقتهم الفكرية التي طبعت الحضارة العربية الإسلامية فسيتضح لنا مدى ما للعرب والمسلمين من

ابتكار خلاق في شتى المجالات [١] .

وقد حمل المسلمون هذه الأمـانة بمسئولية واعية . وكانت نتيـجة ذلك نهضة كبـرى في كل مجـالات العلوم ، ومظاهر النشاط الفكري والعلمـي للإنسان في حياته المادية والروحية على السواء . وقد شملت هذه النهضة جميع فروع العلم ، سواء ما كان منها إسلاميا خالصا كعلوم التفسير والحديث والفقه ، أو ما كان أثرا للتفاعل مع الثقافات الأجنبية .

ولـم تكن الفتوح العربية غزوا مصحـوبا بالتدمير والسلب والنهب ، كما كان غزو التتار والمغول بل إن تلك الفتـوح أوجدت في كل إقليم فرصة لخلق حضارة من صنع الإسلام ملتـحما بالحضـارة المحلية ، سواء أكانت فـارسية أم فينيـقية أم مصرية .

ومن القرن الثامن حـتى القرن الخامس عشـر نشأت وازدهرت أغنى وأجمل حضـارة شهدها العـالم القديم ، وأوربا بوجـه خاص خلال العـصور الوسطى ، وقـبل نهـاية القـرن التـاسع كـان العـرب انتهـوا من ترجـمـة مـؤلفـات أرسطو وجاليـنوس ، وأفلاطون ، وبطليـموس ، وإقليـدس ،وأرشمـيدس وغيـرهم من علماء الهند ، والفرس والإغريق والرومان ثم أضـافوا منجزاتهم إلى معارف من سبـقوهم وهكذا كانت الحضـارة العربية رباطا بين الحـضاريتين القديمة والحـديثة وإضافة لهما [٢] .

---

(١) يراجع بحث عن الحضارة الإسلامية بمجلة نداء الإسلام جـ ٢ ربيع الأول ١٣٩٦هـ .

(٢) راجع بحث عن الفتوح العربية ودورها في الحضارة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن زكي .

ولكن بعض مؤرخي تاريخ العلوم وتطورها وجلهم من الأجانب - أغفلوا نصيب العرب أو مروا به مر الكرام ، وسلطوا الأضواء على ما كتبه اليونان ، ونسبوا بعض النظريات إلى علماء أجانب جاءوا فيما بعد القرن الثاني عشر بينما علماء العرب سبقوا هؤلاء إلى تلك النظريات .

سبب هذا الإنكار :

وقد يتساءل البعض عن السبب في إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب ديني .

وتفسير ذلك يرجع أولا إلى التعصب الموروث لدى الغرب ضد الإسلام وأتباعه . هذا التعصب الذي عاش فيهم دهوراً طويلة ، حتى أصبح جزء من كيانهم .

فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الديني تعصبًا آخر هو أيضا موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكنا من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التي تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتين وغيرهم ،أدركنا -في يسر - كيف ينكر الناس عامة ، ذلك الأثر العظيم الذي كان للعرب في تاريخ الحضارة الأوروبية [١].

والسبب الثاني : الذي هو في نظر رجال الفكر والمصلحين من أهم الأسباب في هذا الإنكار هو سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة فقد حل بهم ما حل من الجهل ، والذل والانكسار ، حتي صاروا حجة لأعدائهم على أنه لا خير

---

(١) راجع :أوروبا والإسلام لفضيلة الدكتور / عبد الحليم محمود ص ١٦٩ .

فـيهـم ولا في دينهم ، وأمكن لهـؤلاء الأعداء أن يـتخـذوا من سـوء مصيـرهـم وتأخرهم حجة داحضة للتأثير بها على أبناء ملتهم و غيرهم ، حتى أبناء المسلمين أنفسهم من الذين يتخرجون من جامعاتهم أو يتولون أعمال الحكومة أو التدريس في كل قطر خاضع لنفوذهـم كما فعلوا في بلاد الترك وإيران ، لتـساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع .

وهذه فرية يكفي لدحـضها أن الشعوب الإسـلامية ظلت صاحبـة الحضارة الغالبة السيادة على العالم المعروف كله قـرونا طويلة متوالية ، وأنها كانت محط رجال العلم والعلمـاء وموئل الحرية التي لم يعـرفها الغرب إلا منذ أمـد قريب . فإذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفـة من الشعوب للدين الذي يؤمن به أهلـها فلا يكون هذا الدين هو الإسـلام ، وهو الذي حفز بدو شبه جزيـرة العرب وأثارهم ومكن لهم من حكم العالم [1] .

وإذاكانت كتب التاريخ في المدارس الأوروبية تحـاول عبثا حتى اليوم وصف العرب - بالتـوحش والبربرية ، والهـمجيـة وتخفي على الدراسين مدى مـا كان لهم من فضل عظيم على أوروبا ، فـإن ذلك لم يمنع المؤرخين المنصفين من وضع الحق في نصابه وإظهار فضل العرب .

تقول المسـتشرقة الألمانيـة المعاصرة « زيجـرد هونكة» في كتابها الذي ألفـته بعنوان « شـمس الله فـوق الغـرب » والذي ترجم إلى العـربيـة منذ نحـو عشـر سنوات تحت عنـوان « شـمس العـرب تسطع على الغــرب » تقـول : في خـاتمة الكتاب .

(١) راجع : حياة محمد للدكتور / محمد حسين هيكل ص ١٤.

لقد حول العرب الأندلس في مائتي عام من حكمهم من بلد جدب فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب يقدس العلم والفن والأدب قدم لأوروبا سبل الحضارة وقادها إلى طريق النور .

إلى أن تقول : لقد بقى الغرب في تأخره ثقافيا واقتصاديا طول الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يواجهه .

ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا وتجاريا . واستيقظ الفكر الأوروبي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قرونا ليصبح أكثر غنى وجمالا وأوفر صحة وسعادة[(١)] .

سبب تدهور المسلمين :

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام إذا كان الإسلام كما سبق أن ذكرنا هو الذي مهد للحضارة الغربية وأوجدها من العدم فما بال الأمم الإسلامية اليوم ضعيفة ولا حول لها ولا قوة ولا طول يدفع عنها الأخطار الجسيمة التي تهددها من كل جانب .

والإجابة السريعة أن حال الأمم الإسلامية لا يرجع إلى تعاليم الإسلام وإنما يرجع إلى المسلمين أنفسهم ، فالمسلمون قد أتى عليهم حين من الدهر نسوا الله فأنساهم أنفسهم وأهملوا دينهم وتعاليمه فأصابهم ما أصابهم ، ولا سبيل لأن يكونوا كما وصفهم القرآن الكريم بأنهم خير أمة أخرجت للناس إلا بالاعتصام

(١) نقلا عن نداء الإسلام جـ ٢ ص ٨٩ / ٩٠.

بالإسلام وتعاليمه .

وجدير بالمسلمين أن يفهموا الإسلام ، على أنه دين عقلي وجداني ،وأن العلم سلاح الدين . وهو سراجه ودستوره قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [1] . والإسلام الذي يقول نبيه الكريم : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . لا يقر بمفسر لمبادئه غير العلم ، ورسوله الذي يعتبر مداد العلماء أقدس من دماء الشهداء ، قد أثبتت بأقوى لغة أن العلم من أركان الإسلام الأساسية ، ولذلك لم يبالغ من يقول : إن كل نظرية أو تفسير لا يتمشى مع العلم يجب أن يعتبر غريبا عنه وينبغي أن ينبذ نبذا .

والإنسان في نظر الإسلام هو وحده القادر على إخلاص نفسه من الشر وعواقبه ، فعليه أن يربي نفسه بنفسه ، متشربا بالإيثار ، ومضحيا بالسفاسف .

وهذا يكفي لتفسير التطور السريع الذي تطورته الحضارة الإسلامية .. ولكن الروح الإسلامية العلمية خمد حماسها شيئا فشيئا ، مكتفية بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون في حمية النشاط الذي كان في القرون الأولى للهجرة ومنذ ذلك العهد والإسلام وقع تحت رحمة النزعات الخرافية في الأقطار الحديثة[2] . ودارت عجلة الزمن لنوضع نحن في المكان الذي كانت فيه أوروبا أيام أن كنا سادة الدنيا وأساتذة العالم .

إن السبيل الوحيد الذي أصبح لزاما على المسلمين أن يسلكوه هو أن يعيش المسلمون عصرهم ، وأن ينهضوا لمواجهة تحديات العصر بالأساليب العلمية

---

(١) سورة فاطر آية : ٢٨.

(٢) أوروبا والإسلام ص ١٧١.

الحديثة ، والفهم الصحيح المستنير للإسلام .

ولا يمانع الإسلام فـي أن تقتبس الأمـة الإسلامـية الخيـر من أي مكان فليس هناك ما يمنـع أن ننقل كل ما هو نافع مـفيد عن غـيرنا ونطبـقه علي قواعـد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا .

المستقبل لهذا الدين :

وإذا كان الغـرب قد نهض نهضـته ، وتفـوق بحضارته إلا أن هذه الحـضارة وتلك النهضة مـادية مفرطة في طغيانهـا . تتركز كلها في دراسة أسرار الطبـيعة . بقصد تيسيـر الحياة المادية ، وتحقيق الرفاهية والهناء الحسـيين عن طريق استغلال هذه الأسرار في تنميـة الصناعات ومضاعـفة الاختراعات .. فعـملت على تقوية الناحية الحربيـة ومضاعفة أدوات التخريب وأساليب التـدمير . وكان لذلك أسوأ النتائج :

أولا : لقد أصبحت شـعوب هذه الحضارة - بفضل الثورة الصـناعية - قوية لدرجة أن هذه الشعوب بدأت تسـتعمر كل العالم الإسلامي بصـورة مباشرة زو غير مباشرة .

ثانيـا : أن الصدام الذي وقع في أوربا بين الحـضارة الحـديثة وبين المسـيحـية الغـربيـة قـد اتجه خطأ إلـي الإلحاد . وهذا الاتجـاه الخـاطئ هو المسـئـول -وليس الحضارة الحديثة نفسها - عن كل تلك العلوم ، وعن كل مظاهر المدنية التي تقود العالم إلي الثورة على الدين [1] ..

---

(١) راجع : الدين في مواجهة العلم لوحيد الدين خان ص ٧٧.

ومن ثم فإن الحضا رة الأوربية تحمل في ذاتها عناصر فنائها فهناك جوانب ثلاثة في الإنسان في حاجة إلي تنمية وتهذيب هذه الجوانب هى : العقل والروح والجسم . وقد ورثت الحضارة الحديثة تراثا غنيا بجوانب العظمة ولكنها أخذت بعض جوانبه ونمته وأغفلت البعض الآخر . فقد أفسحت للعقل مجالا كبيرا وأكملت في الجانب المادي ما بدأته الحضارة الإسلامية وزادت المعارف الإنسانية وبوجه خاص في مجال الطبيعة زيادة هائلة تدل علي عظم الطبيعة وعلي جلال خالقها « ورفعت الحضارة الحديثة من مستوى رفاهية الإنسان وهيأت له وسائل الراحة في مأكله ومسكنه وتنقله ومواصلاته ووقايته ، ونوعت وسائل تلبية رغباته وملذاته . وابتكرت له أنتواعا جديدة من الملذات ويسرت لتحقيقها » .

ولكن هذه الحضارة الحديثة أيضا من جهة أخرى لم تبذل أي عناية في مجال تربية الروح . ولذلك فلم تستطع أن تؤمن التوازن بين مطالب الروح والعقل والجسد فحدث الاختلال والاضطراب . فبقدر تزايد قدرات الإنسان الأوروبي في مجالات العلوم والفنون وشتى مجالات الفكر يتزايد - في الوقت نفسه - انحداره الروحي والأخلاقي ، واحساسه بالضياع النفسي ، والقلق والشعور بعدم الاستقرار والطمأنينة .

وعملية التوازن بين مطالب الإنسان المختلفة قد حققها الإسلام علي أمل وجه وأفضله .. وعلى هدى نوره استضاء أسلافنا في فترات عزهم وجدهم فأضاءوا للإنسانية طريق حياتها وبنوا حضارة كانت من أطول الحضارات عمرا في التاريخ ..

بقـــــاء الـــــروح

إذا تفكر الإنسان قليلا في قضية بقاء الروح أدرك أنها ، ليست بمسألة عقلية فارغة أو فلسفية جوفاء ، بل هى مسألة حياتنا بعد الموت .

ونحن مرغـمون بطبـيعة وجـودنا وحياتنا في الدنيـا ، على أن نقطع في هذه المسألة برأي إمـا بالإثبات أو النفي [1] .. وبقدر ما هى عظيمـة الشأن بقدر ما هى عسيرة التصور .

يقول شاعر عربي بدوي :

أموتٌ ثم بعثٌ ثم نشرٌ

حديث خرافة ، يا أم عمرو !

والأصل في هذا المبحث أن وجـود الروح أمر يتعلق بالوجدان فـالفكر يؤكد أن الإدراك والتـعقل ليسا من خـواص المادة . فـالمادة ليست إلا شـيئـا دون حس ودون حياة ودون عقل . إن المادة لا شأن لها بالأفكار الدقيقة ، والعلوم والفنون . بل هناك جوهر لطيف آخـر هو المسئول عن هذه المعجـزات ، وذلك الجوهر هو: «الروح » .

ولكنني أريد أن أضيف إلى هذا أن الكشوف الحديثة قـد فتحت آفاقا جديدة من الوقائع والحـقائق التي يمكننا أن نقول في ضوئهـا : أن وجود الروح - ككائن مستقل وبقائها بعد فناء الجسم - لم يعد قـضية وجدانية ، بل أصبح حقيقة يمكن إثباتها بالدليل التجريبي .

فـالعلم الحديث قـد أثبت أن الجـسم يتكون من خـلايا دقيـقـة ومتناهيـة في الوجود، وأن هذه الخلايا تتحطم وتفنى في كل آن ، والغذاء يعوض أجسامنا عن

(١) الحياة بعد الموت للأستاذ أبى الأعلى المودودي ص ٨ .

تلك الخلايا التي نفقدها كل يوم . فكأن الجسم بناء يتألف من مئات الملايين من قوالب الطوب ، وهو يستبدل الطوب بطوب آخر في كل لحظة فإذا كانت الروح مظهرا من مظاهر الجسم فقط وجب أن تطرأ عليها التغيرات بمجرد حدوث التغيرات علي الجسم ، تماما كما تتأثر ماكينة بأكملها بمجرد أن ينكسر أحد تروسها . ولكن هذا لا يحدث فيما يتعلق بالروح . فالروح إذن شيء آخر غير الجسم ، ولها وجود مستقل [(١)].

ولقد توصل العلماء والباحثون في الدراسات النفسية إلي أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة بقاء الروح نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. لذلك اضطر كثير منهم إلي التسليم بالحياة بعد الموت كحقيقة واقعة بعد أن قاموا بدراسات محايدة لمختلف الشواهد والأمثلة ومنهم علي سبيل المثال : « البروفسيور س.ج.دوكاس » الذي بحث الجوانب النفسية والفلسفية من نظرية الحياة بعد االموت . والجدير بالذكر أن هذا العالم لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية إلا أنه يستطرد قائلا :

ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت - التي يؤمن بها لكثيرون منا كعقيدة دينية - ليس من الممكن أن تكون واقعا فحسب ، وإنما لعلها هى الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي [(٢)].

الاستدلال العقلي علي الحياة بعد الموت :

وهذا الاستدلال ينبني أساسا علي أن الإنسان إذا نظرنا إليه في جانب، ونظرنا إلي نظام الكون الذي يعيش فيه في الجانب الآخر. لوجدنا أن الإنسان وحده دون بقية الكائنات الموجودة في الكون له وجود خلقي بمعنى أن فيه الشعور بالخير

(١) راجع الدين في مواجهة العلم . لوحيد الدين خان ص ٣٠ / ٣١.
(٢) المرجع السابق ص ٣٣.

و بالشر وهو يفرق بين العـدل والظلم ، والصدق والكذب والحق والباطل ، والرحمة والقسوة ، والإحسان والإساءة ، والسخاء والبخل ، والوفاء والغدر وما إليها من الصفات الخلقية الأخرى ...

والذي تستبعـده -بشدة - فطرة الإنسان ، أن تظهر لأعماله نتائجـها الخلقية كما تظهر نتائجها الطبيعية .

ولكن الملاحظ غـير هذا ، فـإن نتائج الأفـعـال الخلقيـة لا تظهر على الوجـه الكامل ، كما هـو الشأن في نتائج الأفعال الطبـيعية .. فـإنك إذا ما غرست بذرة قمح مـثلا فـإنك لا تحصـد منها إلا القـمح ولكن إذا غرست الصـدق والأمانة ، فقلمـا تحصد منهـا المدح والثناء وكثيـرا ما تحصد منهـا الذم والملومة والاستـهزاء والعقاب لأن العناصـر المادية لها قوانين مضبوطة وقواعـد معينة في هذا الكون ، ولكن لا قانون فيه للعناصر الخلقية .

والأمثلة التي توضح هذه الحقيقة كثيرة منها :

أن بعـضـا من النـاس تأخـذهم العـزة بالإثم ، ويهلـكون الحـرث والنسل ، ويطيلون يدهـم بالنهب والسلب .. يقـتلون الآمـنين الوادعين إرضـاء لأهوائهم وشهـواتهم .. ويفعلون مـا يفعلون دون أن ينالهم الجـزاء في الدنيا .. والعـقاب الذي يتناسـب مع الأضـرار التي لحـقت بخـلق الله على أيديهم .. وقـد ينالهم عقـاب ولكنه لا يكون مساويـا لفداحة جـرائمهم وجسـامة المضار التي ألحـقوها بغيرهم .. فقد يظل أثرها السيء آلافا من السنين .

هذا في جانب الأشرار والمستهترين الخطرين الذين لا يرعون في الله إلا ولا

ذمة ولا خلقا ولا قانونا ..

وخذ مثلا أولئك (الصالحين) الأبرار الذين خدموا النوع البشري ، وعلموه الخير وأناروا له طريق الرشد والصدق والسلام . وما زالت الأجيال المتعاقبلة منذ آلاف من السنين ولا يعلم إلا الله إلى كم من آلاف السنين لا تزال تقتبس من نورهم وتقتدي بآثارهم وتستهدي بأعمالهم . فهل ممكن بوجه من الوجوه أن ينالوا جزاءهم على أعمالهم وخدماتهم كاملا في حياتهم الدنيا ؟ وهل تظن أن من الممكن في ضمن حدود القوانين الطبيعية التي يجري عليها نظام الكون الحاضر أن ينال الرجل جزاء كاملا موفورا غير منقوص على عمل من أعماله ترك تأثيره في عدد لا يحصى من خلق الله وطال رد فعله إلى آلاف من السنين بعد موته ؟

ولا شك أن الإنسان لو خلى وعقله لانتهى بإدراكه وتفكيره إلى أن الموت نهاية مرحلة أولى وبداية مرحلة أخرى ، وأنه يخفي من ورائه شيئا آخر وأن الروح إنما تنتقل من وجود إلى وجود ، وأن بعد الحياة حياة أخرى نجهل كنهها ووصفها لكن العقل يؤمن بها ويتوجه إليها . إذ العقل يتجه تلقائيا إلى أن الفاضل يجب أني يلقي خيرا جزاء عمله وأن الآثم يلقى شرا جزاء عمله ، وقد لا يحدث ذلك في الحياة على وجه الأرض فما أكثر الأشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا ، وما أكثر الفضلاء التاعسين في حياتهم ، وإذا فأين يكون الجزاء الذي أدركه العقل .. لابد من يوم آخر يلقى فيه المثيب جزاءه والمجرم عقابه إنه اليوم الموعود .

الدليل النقلي على الحياة بعد الموت :

والقرآن الكريم يؤيد هذه الحقيقة التي تم الاستدلال عليها بالعقل والفطرة معا ، فيبين أن هذا الكون سيأتي عليه يوم يفنى فيه كل شيء فيقول : جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾[1] حيث يحشر الله جميع الخلائق منذ بدأ الخليقة إلى يوم القيامة ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ؛ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾[2].

وهناك سيجد كل فرد ما قدم من الأعمال في الحياة الدينا : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ [3]. ولكن هيهات فإن أي محاولة من الإسان للإنكار ترد عليه ، فإن كل ذرة من ذرات الأرض تركت عليها أفعاله وأقواله أثرا من الآثار ستشهد له أو عليه كما ستشهد له أو عليه يداه ورجلاه وعيناه وأذناه ولسانه وجلده وكل جارحة من جوارح جسده . ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾[4].

ولعمري إنه لا يسعني إلا البكاء على ضيق أذهان الذين يرون حياة مثل هذه

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة غافر .

(٢) الآيات : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من سورة إبراهيم .

(٣) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران .

(٤) الآيتان : ٢٤، ٢٥ من سورة النور .

الحياة ونـظاما مثل هذا النظام من الأمور التي يستحيل وجودها فـإنه إذا كان من الممكن أن يوجـد نظام العالم الحـاضر بـقوانين الطبـيعـة الحاضـرة فلما كـان من المستحـيل أن يوجد نظام آخر بنوع آخر من القوانين ، وهذا لايمـكن بعينه ببرهان ولا بثبوت علمي وإنما هو في حاجة إلى شهادة القلب والإيمان بالغيب .

ودلائل البعث ترجع في جملـتها إلى لفت أنظار الناس نحو حقـائق بديهية مسلمة :

فالذي بدأ الخلق يستطيع - إذا أفناه - أن يعيده « ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا؟ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (١) .

وهذا الخلق المعاد تتكرر تحت أعيننا صور شتى له ، كل يوم بل كل لحظة .. فعن أبي رزيـن العقلي قال . قـلت يا رسول الله : كيـف يعيد الله الخـلق وما آية ذلك ؟ قال ﷺ : أما مـررت بوادي قومك جدبا ، ثم مررت به يهتـز خضرا ؟ قال نعم ! قال فتلك آية الله في خلقه ، كذلك يحيى الله الموتى !» .

والواقع أن الزروع التي تكسو وجه الأرض وتمشي فيها الحياة والنماء ليست مما تصح الغفـلة عن دلالته . إن الفلاح يستودع ظلمـات التراب حبـة واحدة أو سـاقا واحـدة فإذا بحـقله يتـحول - باسـم الله - إلى جنان يانعـة وثمار شـهيـة وحصاد ميمون ..

كيف تحول الكدر والقذر والطين إلى ثمار وأغصان ورياحين ؟؟

﴿وترى الأرض هامدة فـإذا أنزلنا عليهـا الماء اهتزت وربت وأنبـتت من كل

(١) آية : ٦٦من سورة مريم .

زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[١] .

والمادة الميتة تتحول - في كل غذاء نتناوله- إلى خلايا حية في جسومنا يسري فيها الشعور وتنتفض بالحركة فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبدا ، وهل النشور إلا هذا ؟

إن البعث عقيدة فوق الشبهات فلنتهيأ له بالزاد الطيب من الهدى والتقى والعفاف .

رؤية الله يوم القيامة

النفس البشرية في الدنيا محجوبة عن رؤية الله ومشاهدته لأن الحياة لها حجاب مانع كما أن الأجفان حجاب للأبصار عن رؤية الأشياء . ولذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿لن تراني ﴾ وقال تعالى : ﴿لا تدركه الأبصار﴾[٢] أي في الدنيا.

فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، فإن كانت في حياتها الدنيا ملوثة بالمعاصي والمكدرات وتراكم الخبث والصدأ وصارت كالمرآة التي فسد بطول الخبث جوهرها . فلا شك أن هذه النفس تكون محجوبة عن ربها أبد الآبدين . أما إن كانت قد ألم بها بعض الخبث في الدنيا ولم يصل إلى حد الرين والطبع على القلوب ، فإن هذه النفس يمكن تزكيتها وإزاحة الغشاوة عنها ، بعرضها على النار

---

(١) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة الحج.

(٢) الآية : ١٠٢ من سورة الأنعام .

عرضا يقلع الخبث عنها بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خنيفة في حق المؤمنين . كما ورد في الخبر . (ولن ترتحل نفس من هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلت) . فهى لذلك واردة على النار كما قال تعالى :

﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾ [1] .

فإذا أكمل لهذه النفس تطهيرها وتزكيتها فعند ذلك يستعد بصفائه ونقائه من الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن يتجلى له الحق جل جلاله .. وهذه المشاهدة والتجلي هى التي تسمى رؤية فإن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فإن ذلك مخصوص بجهة ومكان وذلك مما يتعالى عنه رب العالمين علوا كبيرا .

يقول الإمام الغزالي : إنك إذا عرفت ربك في الدنيا معرفة حقيقية تامة فإن هذه المعرفة تكون من غير تصور وتخيل وتقدير شكل وصورة كذلك تراه في الآخرة ، فالمعرفة الحاصلة للمؤمن في الدنيا هى بعينها إلا أنها تستكمل حتى تبلغ كمال الانكشاف والوضوح وتنقلب مشاهدة فلا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح فإذا لم يكن في المعرفة إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هى بعينها إلا في زيادة الكشف.

ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هى

(١) الآية : ٧١من سورة مريم .

البـذر الذي ينقلب في الآخـرة . مـشـاهدة كـمـا تنقلب النواة شـجـرة والبـذور زرعا[1] .

ومن لا يعرف الله في الدنيا لا يراه في الآخرة . وعلى قدر نصيبه من المعرفة تكون الرؤية . وعلى ذلك فإن الرؤية متفاوتة على قدر تفاوت الناس في المعرفة.

ولذلك قـال عليه السـلام : « إن الله تجلى للناس عامـة ولأبي بكر خـاصة ، لأنه فضل الناس بسر وقر في صدره » .

وقد شرح الإمام ابن تيمـية هذه الحقيقة بقوله : « لفظ العبـد يتضمن : كمال الذل وكمال الحب » ونهاية هذه العبـودية هى المرحلة التي سماها الرسول الكريـم بالإحسـان .فالعبودية هى أن يـسلم المرء نفسه لله ، ويتـوجه بكل مشاعـره نحوه سبحانه حتى يصل إلى مقام من اللاشـعور ، حيث يشعر بأنه أمام الله ، وأنه يرى خالقه وبارئه . والمؤمن يظفر بهذه الكيفـية بمختلف الطرق ، كذكر الله وعبادته ، وتحمل التـضحيات من أجله وفي سـبيله ، وسلوك الطريق الإلهي في معـاملات الحياة بالعـمد والإصرار ، واشغال القلب واللسان بأمـور الله ، والتقرب إلى الله عن طريق الأدعية . فهذه الأشياء التي تقرب العبد من الله . والإنسان الذي يطلبه الله هو هذا الإنسان . وهذا هو الشيء الذي تتوقف عليه رؤية الله في يوم الدين، وبه يدخل العبد الجنة . ويحيا حياة طيبة .. وإن العيش عيش الآخرة .. وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون.

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس للإمام الغزالي ص ١٣٧/ /١٣٨ .

الإنسان بين المادية والروحانية

يهتم الإسلام بالجانب الروحي في الإنسان لأنه المطلب الأساسي والهدف الحقيقي من وراء خلق الإنسان في هذه الحياة « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[1]. ومع ذلك فإن من مقتضيات الدين ألا يهمل المرء شؤون الدنيا ولا يحيا حياة روحية خالصة مجردة عن المادة . بل إن قيام المرء بما يصلح أمره ويهيء له حياة كريمة أمر لابد منه في نظر الإسلام « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك»[2].

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وبهذا التوازن بين المادة والروح استقامت الحياة ، وشقت الحضارة الإسلامية طريقها في ثبات وأصالة ، وظلت شامخة أكثر من ستة قرون في الوقت الذي كان يعيش فيه الناس في مناطق العالم الأخرى في تخلف وجمود .

ويجب أن[3] نتذكر دائما ، أن الحاجات الروحية لا تقل في خطورتها وضرورتها للحياة الإنسانية عن الحاجات المادية ، فالحياة الإنسانية لا تستقيم بالقيم المادية ، وتبقى بعد ذلك الناحية الروحية تنزع إلى منازعها وتطالب بأهدافها من خيروسعادة . ولن يشعر الإنسان بالاستقرار والسعادة والرضا الكامل إلا إذا أرضيت جميع حاجاته دون استثناء وسدت مطالبه جميعا مادية ورحية . فالوجود الإنساني يتألف من اجتماع شيئين هما الروح والجسد ، ولكل منهما مطالبه ومقتضياته التي لابد منها .

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٦.　　(٢) سورة القصص آية : ٧٧.

(٣) راجع « المسلم : حياته وإيمانه » للدكتور / ابراهيم عبد المجيد اللبان ص ١ .

وإذا كـان من خصـائص الإنسـان الأساسـية أن الفكرة تدفعـه وتفعل فـعل السحر في تحـديد طاقاته فإن الإسلام كان بالنسبـة للإنسان (العربي) هو الفكرة والعقيدة التي حركت طاقاته ودفعته إلى البناء والتعمير .

فالمقتـضى الأول لخلق الإنسان هو العبادة ، والقـرب من الله في الدينا بعمل الصالحـات ولكن يجب ألا نتـجاهل أننا لن نسـتطيع أن نتمكن مـن القيام بـهذه المهمـة الأساسية إلا إذا حـققنا أولا مقـتضيات الدين دنـيويا ، وهذه المقتضـيات تتركز في العناصر التالية :

١ – القيام المعاشي .

٢ – الحصول على القوة المرهبة .

٣- التمكين في الأرض .

أولا- إن الآية التالية تهدينا إلى المقتضى الأول :

« .. أموالكم التي جعل الله لكم قياما » [١] .

فإذا كان المال لدى أهل الدنيا للحصـول على ترف الحياة فهو عند أهل الحق من المؤمنين للقـيام أو للتـمكين الاقتـصادي في الأرض ، وأسـاس يباشـرون منه نشاطهم العالمي من أصلاح ودعوة .

---

(١) النساء : ٤ .

ثانيا- والآية التالية تدلنا على المقتضى الثاني ، أي الحصول على القوة المرهبة:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ [1] .

فالله تعالى أمرنا بإعداد القوة ، وحدد لنا أن القوة هى التي تتصف بصفة إرهاب الأعداء ، أعداء الله والمؤمنين ، وإنه من واجب مسلمي كل العصور والمجتمعات الإسلامية -بمقتضى هذا الأمر الإلهي الواضح- أن يدبروا ويعدوا القوة التي تعتبر القوة المرهبة في عصرهم . فالخيول هى التي كانت القوة المرهبة في العصر القديم ، بيد أن تلك القوة قد تحولت اليوم عن المفهو القديم .

فالمطلوب الآن ، من صريح الآية أن يحصل المؤمنون على القوة التي تكفي لإرهاب أعدائهم في هذا العصر .

ثالثا- وهذه الآية تهدينا إلى الجزء الثالث من البرنامج الإسلامي لكل المؤمنين ، أي الكفاح من أجل التمكين في الأرض :

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ [2] .

فهذه الآية ترشدنا إلى أن تمكن الحق في الدنيا ، والحصول علي الأمن

---

(١) الأنفال : ٦٠

(٢) النور:٥٥

والسلام ، وتوفير الهيئة الصالحة للعبادة والأنشطة الإسلامية المختلفة :

لا يتأتى إلا عندما ينتقل حكم الأرض إلى أهل الحق . والحصول على الحكم السياسي في المجتمع يعد من أهم الحاجات الدنيوية لأهل الحق .

وأن أي كفاح لتغيير الحكم لا يكلل بالنجاح إلا حين تتوفر له كل العوامل والظروف المساعدة . وقضية الظروف هي قضية عالمية . فنحن نحصل على الظروف السياسية المساعدة حين تتجمع عوامل كثيرة متباعدة في مكان وزمان واحد .

وأن تجمع هذه العوامل والظروف يتم عن طريق قوة كونية هى خارجة عن إرادة الإنسان . ولهذا السبب نفسه قد نسب الله هذا التغيير إلى ذاته تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [(١)] وغاية ما في الأمر أن هذا التغيير ، لابد وأن يكون على أسس سليمة وقوعد ثابتة ، وأركان متينة من الإيمان، والعمل والدين والخلق ،والفضائل ، التي تحقق للناس الخير والعدل ، والكرامة وتنفي عنهم الأنانية والشح والبخل ، والاستغلال والاحتكار . لأنها من أخطر عوامل الهدم ، وتقويض صروح المجتمع .

فالدنيا [(٢)] إذا خير ولكن الآخرة خير منها ، والحياة الإسلامية الصحيحة لا تستبعد الحياة الدنيا ولا القيم المادية ولكن تقبلها عالمة حق العلم أن الآخرة خير منها وأحق بالطلب . ذلك أن المسلم الحق يجعل هدفه السعادة الأخروية ، ولكنه لا يترك الحياة الدنيا ، بل يتناول منها ما يحتاج إليه جسمه وتتطلبه رفاهيته ولكن

(١) الرعد : ١١.
(٢) راجع : المسلم حياته ، وإيمانه ص ١٢٢.

دون أن يتخذها غاية لحياته فالغاية هى النعيم المقيم في الحياة المقبلة .

ويجب أن نقرر هنا بوضوح تام أن طلب السعادة الأخروية مبدأ إسلامي أساسي وأن تجاهله يتضمن ضررا بليغا للحياة الدينية فهو يقوي نزعتنا إلى هذه الحياة وتشبثنا بها ويضاعف إقبالنا على أداء واجباتنا الدينية .

وقد كان الجيل السابق يضع هذا الهدف الديني نصب عينيه ويحكمه في سلوكه تحكيما مباشرا ، فكانت النتيجة الطبيعية أن امتاز هؤلاء الآباء والأجداد بروح التقوى وبالحصانة ضد دوافع الشر بكل أنواعه وصنوفه وبالإقبال الدائم على الله والحياة الروحية حتى أقبل الله عليهم ، ومكن لهم في الأرض وجعلهم أئمة الدين والدنيا معا. ونصرهم نصرا عزيزا مؤزرا على قوى لاشر والبغي والعدوان ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾.

الحـــــلال والحـــــرام

الإسلام قد اعترف للإنسان بحقه في طلب متاع الحياة من أرض الله ، وأباح له أن يستفرغ جهده فيما يحبه ويهواه من أساليب في اكتساب مرافق الحياة ولوازمها ..

إلا أنه لم يبح له -في سبيل الحصول على وسائل الحياة - أن يختار طريقا يفسد عليه أخلاقه ، ويهبط به إلى هاوية الرذيلة ، أو يضر بالمجتمع ، أو يجر إلى نظام الأمة الفساد والدمار .

ومن هنا حدد الإسلام لطالب الكسب حدودا لا يجوز له أن يتعداها ، فأحل له بعض الوسائل وحرم عليه بعضا آخر .

وبين له جميع ما هو حرام عليه ، بيانا وافيا ، ولم يحرمه عليه إلا لأنه مضر بالفرد ، أو مضر بالحضارة [١].

و الأصل في الأشياء هو الحل والإباحة ، إلا ما ورد نص صحيح صريح من الشارع بتحريمه محافظة علي سلامة الفرد والمجتمع ، وصيانتة من الوقوع في الزلات والشبهات . والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالي : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض

(١) راجع : معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام للاستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٥٥.
(٢) البقرة : ٢٩ .
(٣) الجاثية : ١٣.

وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (١).

ومن هنا ضاقت دائرة الحلال في شريعة الإسلام ضيقا شديدا واتسعت دائرة الحلال اتساعا بالغا ، لأن النصوص التي جاءت بالتحريم قليلة جدا .. وما لم يجئ بإباحته أو حرمته فهو باق على أصل الإباحة وفي دائرة العفو الإلهي .

وفي هذا ورد الحديث : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو . فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئا » ، وتلا : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ (٢).

ومن فضل الله على عباده ورحمته بهم أن جعلهم بطبيعتهم مستعدين لمعرفة الحلال والميل إليه ، ،معرفة الحرام والنفور منه .. وجعل بينهم وبين الحرام سياجا من الشبهات من توقاه فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام .. وشر ما يقض مضاجع الأفراد والجماعات وما يزعج القائمين على أمرها أن تخرج عن جادة الحق وأن تتجاوز حدود الله وتنتهك محارمه.

فعن أبي أيوب الأنصاري قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وهو مرعوب فقال : « أطيعوني ما كنت بين أظهركم ، وعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » (٣).

وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس،

---

(١) لقمان : ٢٠ .

(٢) الحلال والحرام في الإسلام للدكتور / يوسف القرضاوي ص ١٥ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات.

فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » [1].

فإذا تردد شيء بين الحل والحرمة ، ولم يكن فيه نص ولا إجماع اجتهد فيه المجتهد ، وأخذ بما يؤيده الدليل ، ويغلب على ظنه أنه الحق ، فإن تطرق الاحتمال إلى الدليل الذي استدل به علي حله ، فمن الورع تركه .. وما لم يظهر للمجتهد فيه شيء فهو باق علي اشتباهه بالنسبة للعلماء وغيرهم .

ودل هذا على أنه ينبغي للمفتي أن يجيب بالاحتياط في النوازل المحتملة للتحريم والتحليل لاشتباه أسبابها عليه وإن علم حكمها يقينا باعتبار ظاهر الشرع . قال ابن المنذر ما تيقن حرمته وشك في بقاء سبب تحريمه فهو باق على أصل تحريمه ، وما تيقن حله وشك في بقاء سبب حله فهو باق على أصل حله .. لقوله ﷺ : لا ينصرف من صلاته حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا .. وما احتملهما ولا مرجح لأحدهما ، الأحسن التنزه عنه كما تنزه ﷺ عن تمرة ساقطة في بيته وقال : لولا أخشى أن تكون من الصدقة لأكلتها » [2].

أما عن السلطة التي تملك التحليل والتحريم ، فالإسلام لم يجعلها في يد أحد من البشر كائنا من كان ، فليس في وسع شخص أن يقول هذا حلال وهذا حرام من عند نفسه ، أو تبعا لهواه ، ومن فعل ذلك فقد تجاوز الحد ، واعتدي

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) راجع : فتح المبين لابن حجر ص ١٥ / ١٦ .

على حدود اللـه ، لأن الذي يملك هذا الحق هو الله جل جلاله ، وإذا كـان الأمر كذلك فلا يملك أحد أن يحرم شيئا على عباد الله . . .

إلا بوحي من كتاب الله أو سنة رسول الله .

وقـد نعى القـرآن الكريم علي أهـل الكتـاب من اليـهـود والنصـارى الذين وضعـوا سلطة التحريم والتـحليل في أيدي أحبـارهم ورهبانهم فقـال تعالى في سـورة التوبـة : ﴿ اتخذوا أحـبـارهـم ورهبـانهم أربابا من دون الله والمسـيح ابن مـريم.ومـا أمـروا إلا ليـعـبـدوا إلهـا واحــدا ، لا إله إلا هو ، سـبـحـانه عـمـا يشركون﴾[1] .

وحين سمع عدي بن حاتم هذه الآية من رسول الله ﷺ قال يا رسول الله إنهم لم يعـبدوهـم . فقـال : بلى .. « إنهم حـرموا عليـهم الحـلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » [2] .

وقـد أنكر الله تعـالي على من حـرم ما أحـل الله ، أو أحل ما حـرم بمجـرد الأهواء والآراء التي لا مـستند لهـا ولا دليل عليـها ، ثم توعـدهم علي ذلك يوم القيامة فقال :

﴿ ومـا ظن الذين يفـترون علـى الله الكذب يوم القـيامـة﴾ أي مـا ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة . ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ فيما أباح لهم مما خلقـه من المنافع في الدنيا ولم يحـرم عليهم إلا ما هـو ضار لهم في

---

(١) التوبة : ٣١.

(٢) رواه الترمذي وغيره وحسنه .

دنياهم أو دينهم . « ولكن أكثرهم لا يشكرون » بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما »[1] .

يقول الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم علي الله تفترون ﴾ [2] .

وقد حدث أن رهطا من أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعثمان وبن مظعون والمقداد بن الأسود وسالم مولي أبي حذيفة رضى الله عنهم اجتمعوا في دار عثمان بن مظعون الجمحي فتوافقوا على أن يجبوا أنفسهم ، بأن يتعزلوا النساء ولا يأكلوا لحما ولا دسما ، وأن يلبسوا المسوح ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتا ، وأن يسيحوا في الأرض كهيئه الرهبان ، فبلغ رسول الله ﷺ ما كان من أمرهم ، فأتي عثمان بن مظعون في منزله فلم يجده فيه ، ولا إياهم ، فقال لامرأة عثمان أم حكيم ابنة أبي أمية بن حارثة السلمي « أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه ؟» قالت : ما هو يا رسول الله ؟ فاخبرها ، فكرهت أن لا تحدث رسول الله ﷺ وكرهت أن تبدي عن زوجها ، فقالت : إن كان أخبرك عثمان فقد صدق فقال لها رسول الله ﷺ : « قولي لزوجك وأصحابه إذا رجعوا : إن رسول الله يقول لهم : إني آكل وأشرب وآكل اللحم والدسم وأنام وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

فلما رجع عثمان وأصحابه أخبرتهم امرأته بما أمرر به رسول الله ﷺ ، فقالوا : لقد بلغ رسول الله ﷺ أمرنا فما أعجبه ، فذروا ماكره رسول الله ﷺ .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٤٢١.

(٢) يونس : ٥٩ .

ونزل في ذلك قول الله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾[1] .

وهذا واضح في أن جميع هذه الأشياء تحريم لما هو حلال في الشرع ، وإهمال لما قصد الشارع إعماله (وإن قصد به سلوك طريق الآخرة) لأنه نوع من الرهبانية . ولا رهبانية في الإسلام .

وعلى ذلك جرت الفتيا في الإسلام : أن كل من حرم على نفسه شيئا مما أحل الله له فليس ذلك التحريم بشيء ، فليأكل إن كان مأكولا ، وليشرب إن كان مشروبا ، وليلبس إن كان ملبوسا ، وليمك إن كان مملوكا . وكأنه إجماع منهم منقول عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم [2] .

ومن محاسن الإسلام أنه ما حرم على الناس شيئا إلا وعوضهم ما هو خير لهم منه ، وهو في ذات الوقت يقوم مقامه ويسد مسده حتى لا يحرمهم من رغباتهم التي تنادي بها فطرتهم وتتعلق بها نفوسهم .

ومن ذلك أنه حرم عليهم الاستقسام بالأزلام .. وعوضهم عنه دعاء الاستخارة . وحرم عليهم الربا .. وعوضهم عنه التجارة . وحرم عليهم القمار .. وعوضهم عنه بالمسابقة والتنافس في الخيرات . وحرم عليهم الحرير ... وعوضهم عنه الصوف والكتان والقطن وما شابهها . وحرم عليهم الزنا

---

(١) سورة المائدة آية ٨٧.

(٢) راجع الاعتصام للإمام الشاطبي ج١ ص ٣٢٤/ ٣٢٦.

واللواط.. وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال. وحرم عليهم شرب المسكرات وأعاضهم عنها الأشربة اللذيذة الطيبة وحرم عليهم الخبائث من المطعومات وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات [١] واقتضت حكمته أنه إذا حرم شيئا ، حرم الوسائل التي توصل إليه ، سدا لذريعة الفساد .

والقاعدة التي استقر العمل بها في دين الله أن ما يؤدي إلى الحرام فهوحرام .. فهو حينما حرم الخمر وأنواع المسكرات والمخدرات وسائر المنكرات والفواحش ، لم يقتصر تحريمه عليها وحدها ، بل حرم كذلك صناعة الخمر وإعادها والاتجار بها بيعا وشراء . وفي الربا : لعن آكله وموكله أي معطى الربا ، وكاتبه وشاهديه ..

والمال الذي يأتي من هذه السبل لا يعده مالا حلالا . بل جميع المكاسب التي تدر الربح على بعض الناس وتضر بالآخرين أو بالمجتمع البشري - كالرشوة ، والسرقة ، والميسر ، وصنوف المقامرة وجميع المعاملات التي يخالطها الغبن والغش يراها الإسلام جرائم ويعاقب عليها . وهو يحرم احتكار الحبوب والأغذية والأمتعة التي تعد من حاجيات الناس ويمنع حبسها طمعا في ارتفاع الأسعار فيفضي ذلك إلى الأزمات والضنك في المعايش [٢].

ومن هنا يغلق الإسلام الطرق المؤدية إلى أورام الثراء الخبيث في التجارة والمعاملات .

---

(١) راجع : الحلال والحرام ص ٢٣/ ٢٤.

(٢) معضلات الاقتصاد ص ٥٥/ ٥٦.

ويوجب على الفـرد أن يلتزم التزامـا دقيـقا بأن يتبين أن كـسبـه حلال ، وأن وسيلته في هذا الكسب فوق الشبهات .

ومن أجل هذا يقول القرآن :

﴿يا أيهـا النـاس كلوا مما في الأرض حـلالا طيـبـا ، ولا تتـبـعـوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين ﴾ [1]، ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صـالحـا ، إني بما تعـملون عليم ﴾ [2]. .﴿ويحل لهم الطيـبات ويحرم عـليهم الخبائث ﴾ [3] .

وهذه آيات تبدو معانيها بوضوح . أنها تنهى عن استـعمال الأشياء الخبيثة .. التي تفسـد الجسم وتشوه العـقل وتنحرف به ، ويمكن أن تسمى هذه التنظيـمات بأخلاقـيات التغذية ، وهي تذهب إلى ضـمان العقل والجـسم بحيث يكونان في حالة تهـيئهمـا للتعامل الطاهر الورع في الحـياة اليومـيـة . وهذا هو الطابع الفريد للتعاليـم الاجتماعية في القرآن .!!

وإن دينا ينظم ويتـحكم حتى في قائمـة الطعام من أجل طهـارة الإنسان ، لا يمكن أن يعجز عن تحـقيق المجتمع المثالي الذي طالما كـان الحلم العزيز للمفكرين في المدن الفـاضلة .. ويمكن فقط اخـتبـار مدي مـلاءمة الإسـلام لحل المشكلات الاقتـصادية العـاجلة ، وتجربتـه في هذا المجال عندمـا نتبع تعـاليمه المتـصلة بكل مجالات الحياة نصا وروحًا .

---

(١) البقرة : ١٦٨ .
(٢) المؤمنون : ٥١.
(٣) الأعراف : ١٥٧ .

مفهوم العدالة في الإسلام

من الحقائق الثابتة أن العدل في مفهوم الإسلام قبل أن يكون فضيلة خلقية فهو مبدأ تأسيس بل هو مبدأ عام يدبر به نظام الكون والنظام البشري ، إنه الحصن المنيع الذي تحتمي وراءه الإنسانية ، بل الميزان الدقيق الذي يحفظ توازن العالم بأسره ، ويحرس بقاءه سعيدا ، يؤدي الواجب كما طلب الله ، ويتلقى الأجر الكريم كما وعد .

إنها المسئولية الكبرى التي يضطلع بها الإنسان في هذه الحياة ليؤدي رسالة الله في الأرض كخليفة عن الله في هذا الوجود .

ونحن إذا تدبرنا معنى قول الله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ وقول الرسول في الحديث الشريف : « بالعدل استقام ميزان السموات والأرض».وأمعنا النظر مليا في هذه الآية الكريمة وتلك الأحاديث الجليلة لألفيناها محتوية على كلمات : الميزان ، والاستقامة ، والاستقرار ، والعدل ، ورأينا أن العدل هو الأداة التي بها تحقق قيام السموات والأرض ، وتم استقرار نظامهما .

فالعدل في الإسلام مبدأ كوني عام [(١)] للكون كله قبل أن يكون خلقا يحقق العدل ، والانصاف بين الناس في الحقوق والواجبات .

وهذا لا يعني أننا نقلل من قيمة العدالة الاجتماعية ، أو العدالة الخلقية ، وإنما نريد فقط أن نبين بحق أن هذا الدين هو حقا دين كل زمان ومكان وكل

---

(١) البقرة : ١٦٨.

بيئة، وأنه لا يرتاع أمام العلم ، ولا يضطرب من ضوضاء المخترعات .

وإنما هو مشتمل على قوى ذاتية أبدية تجعله ينظر إلى الكشوف والمبتكرات الإنسانية ساخرا متهكما ، إذ يراها تتكسر على صخرته المتينة ، ثم تصير حطاما خفيفا يطفوا على صفحة بحر الزمن ساعة من نهار ثم يختفي .. والإسلام باق بارز ، لا يزول ولا يحول [1].

على أن الذي حملنا علي مضاعفة العناية بالعدل ، كمبدأ كوني أكثر منه فضيلة خلقية هو أننا نعلم أن كل دين هام ، مؤلف من ثلاثة عناصر جوهرية ، وهي :

«الفكر ، والأخلاق ، والطقوس »

وأنه إذا تغلب عنصر الطقوس في دين ما ، كان جسما بلا روح . وإذا تغلب فيه العنصر الخلقي ، كان روحا ساذجة بلا عقل ، وإذا ظفر فيه الفكر بالصدارة فجعل يوجه العنصرين الآخرين تحقق الكمال .

ولقد حاول البعض أن يعطي للأخلاق مفهوما ضيقا بحيث قصرها علي الصدق ، والصدقة ، والأمانة ، والوفاء بالعقد وما شاكل ذلك دون أن يربط هذه السلوكيات بالمقاصد العليا للناس والنظام الاجتماعي الذي يعيشون في إطاره .

فالجائع يسرق ويكذب ، ويخون الأمانة ، حتى وأن تصدق عليه الأغنياء ، لأن صدقة الغني لن تحل مشكلته إلا جزئيا ، بل إنها ستزيد المشكلة تعقيدا إن هى تحولت إلى أسلوب حياة ، لأنها ستفقد الجائع كرامته ، وهذا بدوره يؤدي إلى

(١)راجع : هذا هو الإسلام للدكتور محمد غلاب ص ٦٧ ,٦٨.

مزيد من انحطاط الأخلاق وهذا أبعد مـا يكون عن روح الإسلام وطبعته .. ومن ثم فهـو يري أن الأخلاق إن هى إلا انعكاسـات للنظام السائد في المجـتمع .[1]

ويحسن بنا أن نشير هنا إلي معنى خطير ودقيق ، ذلك أن الله جل جلاله قد أخذ العهـد والميثاق على النفوس البـشرية قبل هبـوطها في عالم الأشبـاح « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهـدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » .

ومن دواعي التـصريح بهـذا الميـثاق ، والنص عليـه هو تذكـير بني الإنسـان بربوبيـة الخالق المبـدع . وأنه هو مصـدر تلك النعم التي أحدقت ولا تـزال تحدق بحـيـاتهم إحـداق السوار بالمـعصم ، وتـنسكب عليـهم انسكاب مـاء المزن على الأرض القاحلة لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

واذا حدث الجحود والكنود ، ووقع الغدر بالعهـد ، وتحققت خيانة الميثاق .. فقد حقت عليهم كلمة الله عدالة وانصافا :

﴿فمن نكث فـإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عـاهد عليه اله فسيـؤتيه أجرا عظيما ﴾ .

والذي نود أن نخلص إليه هو أن العدالة منبثقة من هذا الميثاق وهي تبدو في ثلاثة مظاهر جوهرية ينبع الأخيران منها من الأول ، وهى :

١ – علائق المؤمن بربه .

٢ – علائق المؤمن بالمؤمن .

(١)راجع برنامج التثقيف الأول لمنظمة الشباب العربي عام ١٩٧٥ ص ٢١٥.

٣- علائق المؤمن بغير المؤمن إذا كان بينهما عهد .

وهذان المظهران ، الثاني والثالث ، يبينان جانبا هاما من جوانب الأخلاق الاجتماعية الإسلامية ، ويطبعانها بطابع خاص يميزها عن كل ما عداها . ذلك أن المؤمن الذي يخشى الله ويتقيه تراه معتدلا في كل أمر أمر به الله جل جلاله ، لأن المقصود هو الطاعة التي تنتج التطهير ، والسير نحو الكمال ، لا انفاد القوى ، وارهاق الملكات « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » ، « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . . « أنا أقربكم إلى الله ، وأخوفكم منه ، ومع ذلك فأنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام .. » وهذا هو معنى العدل أو الاعتدال في الطاعة التي تربط المؤمن بربه وتنعكس آثارها في سلوكه بوجه عام .

وأما العدالة التي تربط بين المؤمنين ، فهي تشتمل على المساواة المطلقة في الحقوق ، وتلزم الحاكم بأن يحكم بين الجميع بالعدل ، ومقتضى ذلك أن يطبق القانون في دقة وعناية ، دون أي تمييز يدين الأقوياء والأثرياء وذوي الجاه والسلطان ، لصالح الضعفاء والفقراء ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[1] . «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » [2].

وأول محاولة فعالة يسلكها الإسلام لإقامة العدالة في المجتمع هي تأكيده للمساواة في كثير من أحاديث الرسول ﷺ : « **الناس سواسية كأسنان المشط**

(١) النساء : ٥٨.
(٢) المائدة : ٨ .

لا فضل لعربي علي عجمي إلا بالتقوي » .

وسار أبو بكر علي هذا المبدأ في توزيع الثروة ، ولم يشأ أن يلفتفت إلى المزايا الخاصة للأفراد ، فقد وصل إلى بيت المال أثناء خلافته مال كثير فقام بتوزيعه بالتساوي بين المستحقين .

وقد اقترح عليه البعض التمييز في العطاء على أساس من المزايا الروحية لمن يأخذون العطاء ، وعلي هذا النحو يجري تحديد نصيب كل واحد في الأموال العامة . ولم يلق هذا الاقتراح موافقة الخليفة الموهوب ، وأخبر مخالفيه أنه لم يكن بالغافل عن التباين الواسع بين الناس في الميزات والمزايا ، بل هو أعرف بذلك من غيره ، ولكن التفوق الروحي مزية يثيب عليها الله جل قدره ، أما في أمور المعاش فالأسوة خير من الأثرة [1] .

وأهم مظاهر المساواة ترجع إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة ، فلا تفاضل بينهم في هذا الصدد إلا علي أساس كفايتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه والمجتمع الإنساني .

وفي هذا القول يقول الله تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن زكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير**﴾ [2] ويقول عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع التي جعلها دستورا للمسلين من بعده وجمع فيها أسس الدين الإسلامي :« **أيها الناس : إن ربكم**

(١) راجع الإسلام وتوازن المجتمع ص ٤٩ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .

واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وثانيها : المساواة أمام القانون في الحقوق العامة السياسية وغيرها بدون تفرقة بين صعلوك وأمير ، ولا بين شريف ووضيع .

وفي هذا يقول عمر رضي الله تعالى عنه ، الذي يرجع إليه قسط كبير من الفضل في تنظيم شئون القضاء في الإسلام وإقامتها على دعائم متينة من كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصحابة ، يقول : في خطبة خطبها بعد توليه الخلاف : « أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف من القوي حتى آخذ الحق منه » .

ويقول في رسالته في القضاء التي كتبها إلي أبي موسى الأشعري : وهى التي جمع فيها معظم أحكام الإسلام في القضاء : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس : سلام عليك أما بعد ك فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع حكم بحق لا نفاذ له . آسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك (أي سوِ بين المتخاصمين في جميع هذه الأمور). حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » ويقول في وصيته للخليفة من بعده : « **اجعل الناس عندك سواء لا تبال علي من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك**

والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله »[1] .

وحدث مرة أن عمر بن الخطاب في أيام خلافته رأى رجلا وامرأة علي فاحشة . فجمع الناس وقام فيهم خطيبا وقال : ما قولكم أيها الناس لو رأي أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟« فقام علي بن أبي طالب وأجاب بقوله :

« يأتي أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف إذا صرح باسمي من رآهما ، شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين . ثم تلا قوله تعالى : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون** »[2] فسكت عمر ولم يعين شخص المجرمين .

ولا يفرق الإسلام في تطبق هذا المبدأ بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقرر أن الذميين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسليمن من حقوق عامة وعليهم ما علي المسلمين ، ويجب على الدولة أن تقاتل عنهم كما تقاتل عن جميع رعاياها ، وتطبق عليهم القوانين القضائية التي تطبق على المسلمين إلا ما تعلق منها شؤون الدين فتحترم فيه عقائهم وشعائرهم ، فلا توقع عليهم الحدود الإسلامية فيما لا يحرمونه ولا يعاقبون أنفسهم عليه .. بل إن الحاكم المسلم لا ينتهي في معاملة الذميين عند نصوص الشرع والقانون ، وإنما هو مطالب فوق ذلك بالمجاملة وحسن المعاملة في غير ما بينته النصوص وفصلته العهود . وفي هذا يقول النبي عليه السلام :

« **من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار** » ويقول أيضا : « **من آذى**

(١) راجع : حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٤ وما بعدها .
(٢) سورة النور ، آية ٤ .

ذميا فقد آذاني » .

ثالثا : المساواة في شئون الاقتصاد . وذلك بالعمل علي تحقيق تكافؤ الفرص بينهم في هذه الشئون ، وعلي تقليل الفروق بين الطبقات وتقريب بعضها من بعض ، وتحقيق الاشتراكية المعتدلة في أحسن صورها ووصلت شريعة الإسلام في مبلغ حرصها علي تقرير هذا النوع من المساواة إلي شأو لم تصل إلي مثله ، بل لم تصل إلي ما يقرب منه ، أية شريع أخري من شرائع العالم قديمة ومتوسطة وحديثة [1] .

وهذا الطابع الجليل قد أثار ألوانا من الثناء والتقدير حتي من أعداء الإسلام . يقول الدكتور دهالا . في كتابه « عالمنا في طريقه إلى الكمال » :

« إن دين محمد وحده بين أديان العالم هو الذي ظل متحررا من الحاجز اللوني .. إنه يفتح ذراعيه على وسعها ترحيبا بمعتنقيه أيا كانوا : زنوجا أو منبوذين !! وهو يمنح الجميع حقوقهم وميزاتهم دون تحفظ ، ويحتضنهم في نطاق المجتمع مثلما يحتضنهم في نطاق العقيدة . والإسلام يستبعد كل حواجز المولد واللون : ويقبل شتى معتنقيه ضمن جماعة المسلمين علي أساس المساواة الاجتماعية التامة » .

وفي كتاب « مؤلفي التاريخ » كتب هـ .ج . ولز : « إن تأكيد الإسلام لمساواة الناس جميعا دون أي تفرقة بسبب العقيدة أو الطبقة ، وأن الأخوة التي عقدها الإسلام بين المسلمين كأسرة واحدة جعل من هذه العقيدة إحدى القوى

---

(١) المرجع السابق ص ١٧.

العظمي للعالم المتدين اليوم .

وإن الإسلام إذا يؤكد بصفة خاصة الاستناد إلي المزايا الحقيقة والفضائل ، ويستبعد تماما كل العناوين والعلاقات المصطلح عليها للتمييز والتقسيم قد خلق ما يمكن أن نسميه بلغتنا الحديثة ، « المجتمع المتوازن » أو « الأمة الوسط » بتعبير القرآن والإسلام لا يكتفي بمجرد تأكيد المساواة الاجتماعية ،و بل هو يحظر كل اتجاه أو عمل من شأنه أو يمزق التجانس الاجتماعي في الأمد البعيد . أو يؤدي إلى تضخم رءوس الأموال بابتزاز الناس أو غشهم أو التحكم في ضروريات حياتهم واستغلال عوزهم وحاجتهم أو الإثراء عن طريق الانتفاع بالسلطان والجاه . فهذه الطرائق وغيرها تؤدي عادة إلي إيجاد الفوارق الكبيرة بين ثروات الأفراد ، وفي تحريمها تحقيق للتوازن الاقتصادي من أمثل طريق[1] .

---

(١) يراجع : الإسلام وتوازن المجتمع ص ٥٩ / ٦٠.

الضوابط الشرعية لاستثمار المال

إن سياسة استثمار المال ، وطرق تنميته أصبح الآن مشكلة معقدة يواجهها الناس فى هذه الأيام ، وفى هذا العصر الذى انتشرت فيه المصارف والبنوك، وبيوت المال التى تتعامل بالفائدة، فقد تم لها السيطرة الكاملة علي مقدرات العالم الإسلامى فى النظام المالى ، فهى التى تتحكم فى سياسة المال والاقتصاد، وتوجهه الوجة التى نراها مناسبة لها حسب خطتها مما أثر تأثيرا سلبيا، وجعل المسلم الذى يتمسك بدينه يعيش فى أزمة نفسية وروحية تجعله لا يدرى كيف يتصرف ، ولا ماذا يفعل فى الخروج من هذه المشكلة فهو يتعامل بالربا عن طريق هذه البنوك رضى أو كره.. فكيف يتنسى له أن يوفق بين أمور معيشته ومقتضيات دينه فى عصر قد اختلط فيه الحرام بالحلال ؟

ولكن الله تعالى رحيم بعباده ، فما من مشكلة وإلا ولها فى الإسلام حل مناسب قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]والفقه الإسلامى بما اشتمل عليه من حيوية ومرونة، قادر على أن يواجه الحوادث المتجددة ما يناسبها من أحكام، ويخصص لها حكما مستنبطا من كتاب الله ، أو سنة رسوله، أو من روح التشريع العامة ومقاصده وأسراره [2].

وعلماء المسلمين قد أفرغا وسعهم وأعملوا ذهنهم، فاجتهدوا لعصرهم ولما بعد عصرهم، وتوصلوا إلى كثير من الحلول التى ترفع الحرج عن الناس من خلال ما وضعوه من القواعد والضوابط التى لا غنى عنها فى عصر من العصور،

(١) سورة الحج الآية : ٧٨.

(٢) موقف الشريعة من المصارف الإسلامية المعاصرة تأليف الدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادى طبع بيروت ص ٥.

فالمشقة تجلب التيسير، والعادة محكمة، وإذا ضاق الأمر اتسع ، والضرورات تبيح المحظورات ..

وانطلاقا من هـذه القواعد وغـيرها ، فـإن علماء المسلمين رخـصوا فى أكل الحرام إذا عم القطر كله، ولم يوجد مال حلال.. فـإذا لم يوجد مال حلال، فعلى المسلم أن يأخذ من الحرام بقدر حاجته ، ولا يقتصر على قدر الضرورة.

قال السـيوطى : وفى ذلـك سر عظيم، لأنه لو عم الحـرام، ومنعنا الناس من تناوله، لألحقنا بهم مشقات عظيمه، فى المأكل والمشرب والملبس وغيرها ولأنه لو اقتصر الناس على الأخذ بقدر الضـرورة لأدى إلى ضعف العباد ، واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الإسلام[1].

والمشقات إذا تنوعت تنزلت منزلة الضرورة فتأخذ حكمها.

وأما إذا وجد الحرام فى بعض البـلاد.. فإنه من الأحوط دينا أن يسعى المسلم مهاجرًا إلى البـلاد التى فيها حلال، فيكلف الذهاب إليـها، ولا يجوز له أن يأخذ من طعام بلده التى عم فيها الحرام[2].

وإذا طبقـنا هذا الحكم على ما يجـرى الآن فى المجتـمعات الإسـلاميـة فيـما يتـعلق بسـيـاسـة المال التى تجـرى فى المصـارف والبنوك فـلدينا نوعـان من هذه المصارف :

النوع الأول : بنوك تتعامل بسعر الفائدة، وهى الأكثر انتشارا .

والنوع الثانى: بنوك لا تتعامل بسعر الفائدة، وتتحرى بقدر الإمكان أن تكون معامـلاتها شرعيـة، وهى البنوك الإسلاميـة أو المصارف الإسلاميـة كما يسمـيها

(١) الأشباه والنظائر ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) قواعد الأحكام فى مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ٢/ ١٨٨ .

البعض.. وهذه البنوك هى بالنسبة للمسلم طوق النجاة .. لأنها جاءت تلبية لمتطلبات المجتمع المسلم المعاصر.. وفوق ذلك ، فإن هذه المؤسسات تضطلع بمهمة إثبات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ..والأكثر من ذلك فإن هذه المؤسسات هى الدليل الحاسم على اقتداره على حمل البشرية إلى بر السلام ، والازدهار، والأمان. كما يمليه قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾[1]. وقوله تعالى : لآدم وحواء ، وهو المنهج الذى رسمه القرآن لمن بعدهما : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾[2].

وإن كل مسلم فى أى بقعة من أرض الله ، يبارك هذه البنوك، ويساندها حتى تنهض ، لتؤدى درورها، طبقا لتعاليم الإسلام وقواعده ليكون الجهاز المصرفى خاضعا لمنهج الإسلام الذى لا يخضع لسعر الفائدة . وحتى يكون هذا المنهج واضحًا فى الأذهان ، فإنه يتحتم أن نلخص ذلك المنهج فى الخطوات التالية :

أولا : تحريم التعامل بالربا :

والقاعدة الأساسية فى بيان حقيقة الربا .. أن كل قرض جر نفعًا فهو ربا.. والإسلام فى تحريمه للربا يقصد إلى بناء اقتصاد فاضل، فرأس المال لا يعمل وحده، وأنه لا كسب من غير تعرض للخسارة ، وأن النظام الربوى يفرض مكسبا لرأس المال من غير عمل قط، ومن غير تعرض للخسارة قط فلم لا يبح الإسلام أن يأخذ التاجر أو الصانع المقدار من المال، ويدفع الربا بقدر معلوم ،

---

(١) سورة قريش الآية : ٣، ٤ .

(٢) سورة طه الآية : ١٢٣.

خسر أو كسب [١].

ثانيا :تقرير العمل ليكون مصدراً للكسب :

فإنه إذا كان المال لا يلد المال .. فلا بد أن يكون العمل هو البديل عن اعتبار المال مصدراً وحيداً لكسب المال.. ويعنى هذا توجيه الجهد نحو التنمية والاستثمار عن طريق عقود المعاملات الشرعية كالمضاربة والمشاركة فى رأس المال والمشاكات المنتهية بالتمليك ، والمرابحة ، وبيع السلم وغيرها، فهى التى تراعى الواقع وحاجة التطور بدلا من سعر الفائدة التى تنفصل عن واقع النشاط الاقتصادى وإنجازته الحقيقية [٢].

ثالثا : البعد عن شرط الأسد وتقرير بطلانه :

وشرط الأسد هو ذلك الشرط الجائر الذى ضمن الكسب لطرف دون طرف وهذا الشرط ينافى العدل ويحقق الظلم.. فإن تحديد مقدار معين مسبق من ربح الاستثمار بنسبة معينة من رأس المال لا يحقق العدالة، فقد يكون مساويا لما تم تحديده ، وقد يكون دونه، فان إعطاء هذا المقدار المحدد لطرف يمثل تمييزا له على حساب شريكه، وهذا ما يسمى بشرط الأسد.

من أجل ذلك اختلف الفقهاء فيما إذا كان اقسام الربح حسب حصص رأس المال أو حسب الاتفاق .. وكان هذا الاختلاف فيما هو أعدل ، فالأحناف والحنابلة يرون جواز التفاضل فى الربح حسب الاتفاق والشافعية. وأهل الظاهر على القول بتساوى الربح مع حصة رأس المال [٣].

(١) بحوث فى الربا للشيخ محمد أبى زهرة ص ٣٨.

(٢) موقف الشريعة الإسلامية من المصارف الإسلامية المعاصرة للدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادى ص ١٧٢ وما بعدها .

(٣) بدائع الصنائع ٦/ ٦٢، شرح الزرقانى ٦/٤٨، فتح العزيز ١٠/ ٤٣٤، المغنى والشرح الكبير ٥/ ٤٧، المحلى ٨/ ١٤٤.

رابعًا : تصحيح وظيفة رأس المال فى المجتمع :

وذلك يعنى ربط التنمية الاقتصادية بالتنمية الاجتماعية ، ومن هنا يبرز نظام الزكاة فى مصارفها، ومدى أهميتها الوظيفية الاجتماعية ، فيكون الاستثمار لتحقيق واجب العبادة، وأداء وظيفة الخلافة، والاهتمام بالنواحى الاجتماعية، وذلك أصل من أصول الإسلام دعا إليه القران فى قوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(١).

الأمر الذى يمكن معه القول بأن المسلمين فى سلوكهم الاقتصادى واستثمار المال لا تحكمهم الرغبة فى الإشباع المادى فقط، وإنما قبل ذلك يحكمهم سلوك التزامهم الدينى بطاعة الله عز وجل، وعدم عصيانه، بالحصول على نصيبهم العادل ثم الإحسان إلى الآخرين، وعدم الإفساد فى الأرض (٢).

خامسا : التمويل وطرق استثمار المال :

الأصل فى مجال استثمار المال، وطرق تنميته أن الشخص إذا كان يعمل فيه بنفسه فهو الذى يحصل على منافعه ، وهو الذى يتحمل مخاطره وضمانه. فيكون خراجه أى منافعه وضمانه عليه وحده. أما إذا سلمه لشخص آخر لاستثماره أو ليتصرف فيه كيفما شاء، فإن هذا المال يدخل فى ضمان الشخص المستلم لهذا المال لأن حق صاحب المال فى ذمة هذا الشخص، فتكون له منافعه وعليه ضمانه طالما أن المالك لا سلطان له على استثمار المال، فإذا هلك ضمنه لصاحب المال مهما كانت الظروف .. وهذا ما ينطبق على القرض ، والديون ، والائتمان بكل صوره وأشكاله. وأما إذا نقل قدرته المالية إلى شخص وظل له

---

(١) سورة القصص الآية : ٧٧.

(٢) القواعد الشرعية وتطبيقاتها على المعاملات المالية المعاصرة إعداد الدكتور محمد عبد الحليم عمر ص ٥.

سلطة على استعماله ففى هذه الحالة يتحمل نصيبا من المخاطر بقدر المال الذى سلمه ويكون له فى مقابل ذلك عائد من الربح.. وهذا ما يحدث فى الشركات وذلك تخريجا على قاعدة : الخراج بالضمان(١).

وبناء على هذه القاعدة .. فإن البنك يضمن الودائع للمودعين والمقترضون من البنك، يضمنون قيمة القروض .. ومن ثم فلا يستحق البنك عائدًا على القروض ، ولا تلزمه فائدة لأصحاب الودائع.. وإذا أريد للمودع أن يأخذ عائدًا، فليتحمل فى المخاطر الناتجة على استخدام البنك لهذه الودائع ، وإذا أريد للبنك أن يأخذ عائدًا ممن قدم له التمويل، فليتحمل المخاطر.. وكل هذا لا يتأتى إلا فى إطار المشاركات التى يتحمل فيها كل طرف جزءً من المخاطر مقابل حصوله على المنافع. عملا بقاعدة الخراج بالضمان . ومعناها ربط استحقاق الإيراد أو الربح، وهو الخراج بتبعة أو تحمل الهلاك للمال سواء كان الهلاك بتلف أو خسارة.

ولا يقال فى تبرير الفائدة إن العادة جرت بذلك، والعادة محكمة كما لا يقال : إن ذلك من قبيل الشرط القائم بين المتعاقدين والمعروف عرفا كالمشروط شرطا، لأن العرف لا يؤخذ به إذا تعارض مع الشرع ، فلا يلتفت إليه ولا يعمل به شرعًا .

ولا يقال : إن مخاطر البنك قليلة أو هى معدومة، أو يمكن إذا حدثت أن تغطى من المخصصات وتنوع الاستخدام.. لايقال ذلك لأن الواقع العملى أثبت حدوث مخاطر جسيمة للبنك وبشكل حاد.. فقد لا يحقق البنك فى كل الأحوال معدل الفوائد المطلوبة للمودعين، إضافة إلى ذلك مخاطر عدم السداد، ومخاطر الاستيلاء على أموال البنوك ، وهى ظاهرة موجودة وقائمة فى هذه

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ص ١٥٠ .

الأيام.

ومن أجل ذلك يتحتم البعد عن العمليات الربوية بالمشاركات فى الغنم والغرم فهو البديل الشرعى عن الغنم المضمون المتمثل فى سعر الفائدة الثابتة.. وعلى البنوك غير الإسلامية أن تعدل من نظامها فى المستقبل فذلك فيه صلاح للفرد وللمجتمع، وفيه بعد عن مخاطر الربا الذى نهى الله عنه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٨، ٢٧٩.

الإحتـــــــــكار

وإذا كان الاسلام قد حرم الربا تحريما قاطعا فى كل صوره وأشكاله ، وتوعد عليه بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنه كما سبق أن ذكرنا من أبشع صور الاستغلال وامتصاص دماء الضعفاء ، ودليل الشح والكزازة والتكالب والتطاحن والفردية والأثرة الخسيسة . التى تهبط بالمجتمع الى الهاوية ، وتجر على الأمة الخراب والدمار .. فكذلك حرم الاحتكار لما يترتب عليه من أضرار اجتماعية وخلقية فادحة ، ذلك أن الاحتكار يقوم على استـــغلال آثم ، لأن مؤداه ادخار المواد المطلوبة لوقت الاضطرار اليها ، فكان الكسب فيه بطريق الانتظار وقد قررنا أن الكسب بطريق الانتظار الزمنى غير مشروع لا يبيحه الاسلام ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « **المحتكر خاطىء** » **أى آثم فكسبه يكون خبيثا ...**

وروى ابن عمـــر أن النبى صلى الله عليه وســـلم قال : (الجانب مرزوق ، والمحتكر محروم ، ومن احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله بالافلاس والجذام) وروى أبو سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من احتكر حكره ــ بضم الحاء وسكون الكاف ــ يريد أن يغلى على المسلمين فهو خاطىء ، وقد برىء من ذمته الله) .

قال الامام الشوكانى فى نيل الأوطار بعد أن أورد جملة من أحاديث الاحتكار : وظاهر الباب • أن الاحتكار يحرم من غير فرق بين قوت الآدمى والدواب وغير ذلك •

وقد اشترط كثير من الفقهـــاء لتحقق الاحتكار الآثم ثلاثة شروط :

أولها : أن يكون الشيء المحتكر فاضلا عن كفايته وكفاية من يمونهم سنة كاملة ، لأنه يجوز للانسان أن يدخر حاجة أهله ، **اذ ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحبس لأهله قوت سنتهم من الطعام أن تسنى له ذلك •**

وثانيها : أن يكون قد تربص الغلاء ليبيع بأثمان فاحشـــة الغلاء لشدة حاجة الناس ، وبذلك يجد الغنى ما يسد به حاجته أو ضرورته ، ولا يجد الفقير ما يدفع به حاجته ، أو ضرورته •

ثالثها : أن يكون الاحتكار فى وقت احتياج الناس الى الشيء المحتكر ، ولو كان الشيء فى أيدى عدد من التجار — ولكن لا ضيق عند الناس — فلا يعد ذلك احتكارا ، لأن السبب فى المنع هو دفع الضرر عن الناس لا عن التجار ، ولا يكون ذلك الا اذا كان الناس فى حاجة شديدة[1] • عملا بالقاعدة الاسلامية التى تخضع لها جميع المعاملات وهى قوله عليه الصلاة والسلام « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » • ويمكن أن يلحق بالأقوات ما يترتب على احتكاره تلف وهلاك يصيب الناس كاحتكار الثياب فى وقت البرد الشديد مع حاجة الناس اليه ، وحبس وسائل

---

(١) التكافل الاجتماعى فى الاسلام لشيخ محمد ابو زهرة ص ٦٠

النقل للجند فى ابان الجهاد لما فى ذلك من اضعاف لقوة المسلمين واتاحة الفرصة لتفوق العدو عليهم[١] •

موقف ولى الأمر من المحتكر :

وبناء على ما تقدم فانه لولى الأمر أن يفرض على المحتكر العقوبة التعزيرية التى يراها مناسبة متى أصر المحتكر على موقفه بعد أمره بالبيع وعدم احتكار أقوات المسلمين[٢] • وفى هذا يقول العلامة ابن القيم :

والقول بوجوب منع الاحتكار حق • مثال ذلك أن يمتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس اليها الا بزيادة على القيمة المعروفة • فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل •

ومع ذلك ألا تباع الا لأناس معروفين ، فلا تباع تلك السلع الا لهم ثم يبيعونها بما يريدون ، فلو باع غيرهم ذلك منع وعوقب فهذا من البغى فى الأرض والفساد والظلم الذى يحبس به قطر السماء •

وهؤلاء يجب كفهم عن الاحتكار والجشع وألا يبيعوا الا بقيمة المثل واذا تركوا لهواهم كان ذلك ظلما للبائعين الذين يريدون بيع تلك السلع •• وظلما للمشترين منهم •• واذا كان لا يجوز الاكراه على البيع بغير حق ، فانه يجوز الاكراه عليه بحق •

---

(١) المجموع للنووى ج ١٣ ص ٤٦
(٢) نظرية الظروف الطارئة للدكتور يوسف قاسم نقلا عن نشرة رقم ٨٧ ص ٢١

والاسلام لا يقف مكتوف اليدين فى علاج أى مشكلة أو أزمة تتعرض لها البلاد ، وهو فى ذلك يقدم الحلول المرضية ويعالج الأزمة من جذورها ، وفى مثل هذه الأزمات الاقتصادية يسلك فى حلها ثلاث طرق ، لدفع المشقة والضرر عن الناس :

أولهـا : أنه حرم استغلال حاجة الناس ، ومنع الاحتكار ، وتوعد فاعله بأشد أنواع العقوبات فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فان السلع المحتكرة تباع جبرا عن صاحبها بالسعر المعقول فان امتنع فانه يجبر على بيعها مع توقيع العقوبة التى تردعه عن ظلم الناس وخفاء السلع والتحكم فيها وبيعها بالثمن الذى يرضى جشعه ٠

المسلك الثانى : أنه قد رغب التجار فى جلب البضائع ، لأن فى الجلب زيادة فى السلع المعروضة ، واذا كثر العرض اختفت الأزمة ، لأن سببها قلة العرض وكثرة الطلب ، والجالب مرزوق والمحتكر ملعون ٠٠ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا رأينا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى عام الرمادة يلجأ الى مثل هذا فقد أرسل الى عامله بمصر اذ ذاك وهو عمرو ابن العاص يطلب منه امداده بما فى هذا القطر من بضائع وسلع قائلا له : « الغوث الغوث » فأجاب عمرو : « ستكون عير أولها عندك وآخرها عندى » ٠

والمسلك الثالث : التسعير وذلك بأن يكون لولى الأمر الحق بالزام التجار بأسعار يحددها لهم ، وليس لأحدهم أن يخالفها ، لأنها فى الواقع تحقق لهم ربحا معتــدلا ، وترفع الظلم عن المحتاج ٠ وقد قال ابن القيم : « وأما التسعير : فمنه ما هو ظلم محرم ٠ ومنه ما هو عدل جائز » ٠

فاذا تضمن ظلم الناس ، واكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه ، أو منعهم مما أباح الله لهم • فهو حرام • واذا تضمن العدل بين الناس ، مثل اكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل • فهو جائز ، بل واجب •

فأما القسم الأول : فمثل ما روى أنس قال : **« غلا السعر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم • فقالوا : يا رسول الله ، لو سعرت لنا ؟ فقال : ان الله هو القابض الرازق ، الباسط المسعر • وانى لأرجو أن ألقى الله ولا يطالبنى أحد بمظلمة ظلمتها اياه فى دم ولا مال[1] »** •

فاذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر ـــ اما لقلة الشىء ، واما لكثرة الخلق ـــ فهذا الى الله • فالزام الناس أن يبيعوا بقيمة بعينها : اكراه بغير حق •

وأما الثانى : فمثل أن يمتنع أرباب السلع من بيعها ، مع ضرورة الناس اليها الا بزيادة على القيمة المعروفة • فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل • ولا معنى للتسعير الا الزامهم بقيمة المثل • والتسعير ههنا الزام بالعدل الذى ألزمهم الله به[2] • لأن واجب ولى الأمر أن يمكن كل انسان من أن يصل الى ما يحتاجه من السلع بأثمان لا شطط فيها ولا مجاوزة للاعتدال • ولا سبيل لذلك الا بالتسعير •

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وصححه . سنن أبى داود ٣/ ٧٢٢ كتاب الاجارة باب التسعير .
(٢) يراجع : الطرق الحكيمة لابن القيم ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

ومن ثم فقد أجازه كثيرون من الفقهاء لأنه يدفع الأذى ويمنع الاحتكار أو يخففه ويسهل العيش • وخالف فى ذلك أبو حنيفة وأصحابه استنادا لقوله صلى الله عليه وسلم : « **لا تسعروا فان الله هو المسعر** » **ولأن التسعير غالبا ما يؤدى الى اختفاء البضائع من السوق الظاهرة الى السوق الخفية ، وعندئذ يكون التغالى فى الأسعار ، ويشتد الضيق على الفقراء ، ولا ينال من ذلك شـيئا الا الأغنيـاء •**

وفى الحق أن التسـعير علاج موقت ولابد أن يكون معه الجلب ، والا كان شرا ويستمر التسعير ما دام الجلب لا يغمر الأسواق حيث يكون التنافس بين التجار فى ترويج البضائع لا فى اخفائها[1] • ولهذا كان لولى الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، فمن وجد عنده طعام لا يحتاج اليه ، والناس فى مخمصة ، أو سـلاح لا يحتاج اليه ، والناس يحتاجون اليه للجهاد ، أو غير ذلك ، فانه يؤخذ منه بغير اختياره بقيمة المثل ولو امتنع من بيعه الا بأكثر من سعره ، فأخذه منه بما طلب ، لم يجب عليه الا قيمة مثله •

واذا كان هذا موقف الحاكم من الاحتكار والمحتكرين ، فان لكل قادر من المسلمين أن يبذل ما وسعه من جهد ومال لكى يمنع جشع المحتكرين ويحقق لأبناء أمته الرخاء والرفاهية ، والحياة الطيبة كما فعل عثمان بن عفان رضى الله عنه • فقد

---

(١) راجع : التكافل الاجتماعى ص ٦٢

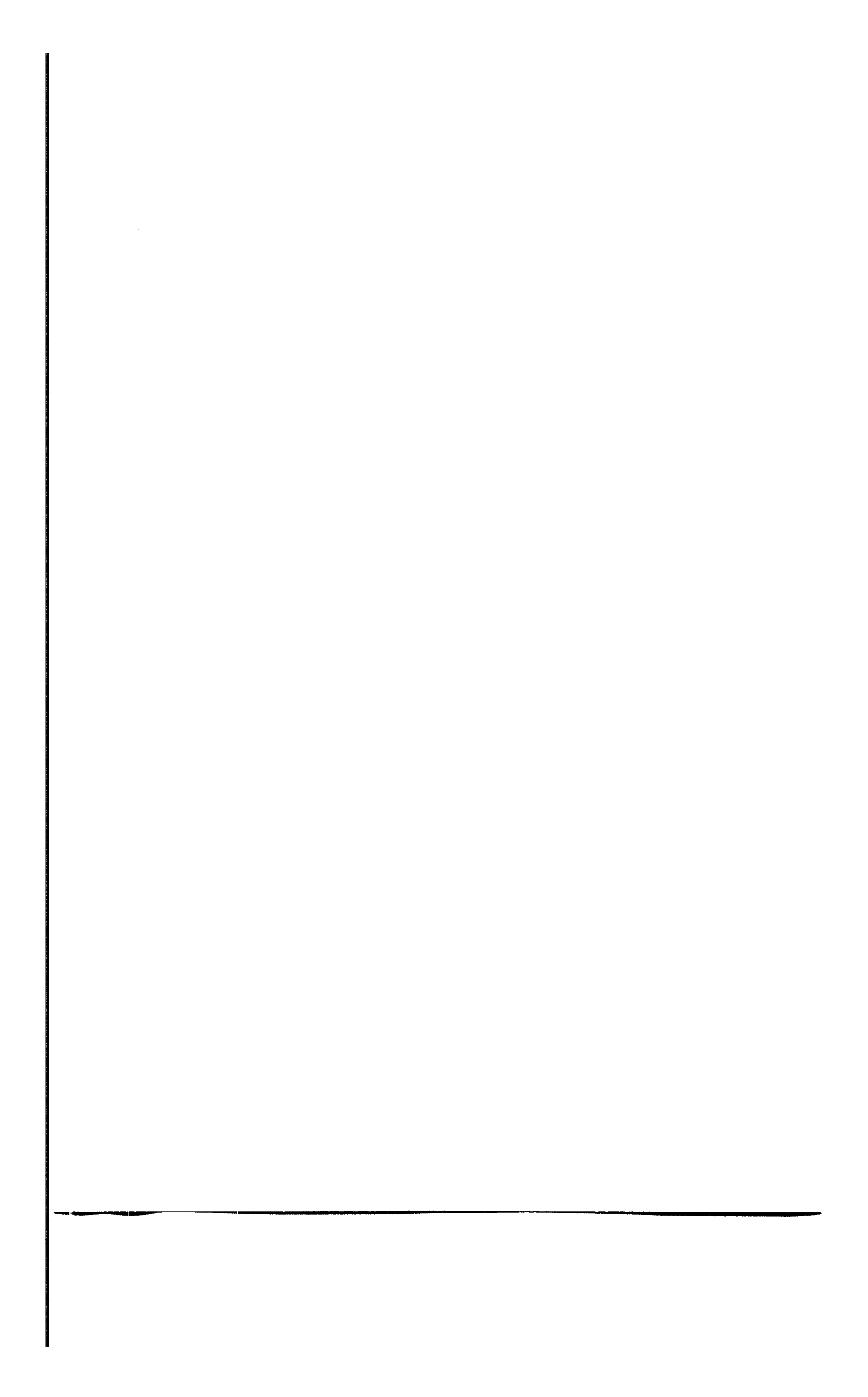
ذكر ابن عبد البر أن بئر رومة كانت ليهودى بالمدينة يبيع ماءها للمسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها شرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان الى اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها فأشترى عثمان نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان : ان شـئت جعلت لنصيبى قرنين — مكانين للسقيا — وان شئت فلى يوم ولك يوم ؟ فقال : بل لك يوم ولى يوم ، فكان اذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى اليهودى ذلك قال : أفسدت على بئرى فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم[1] .

---

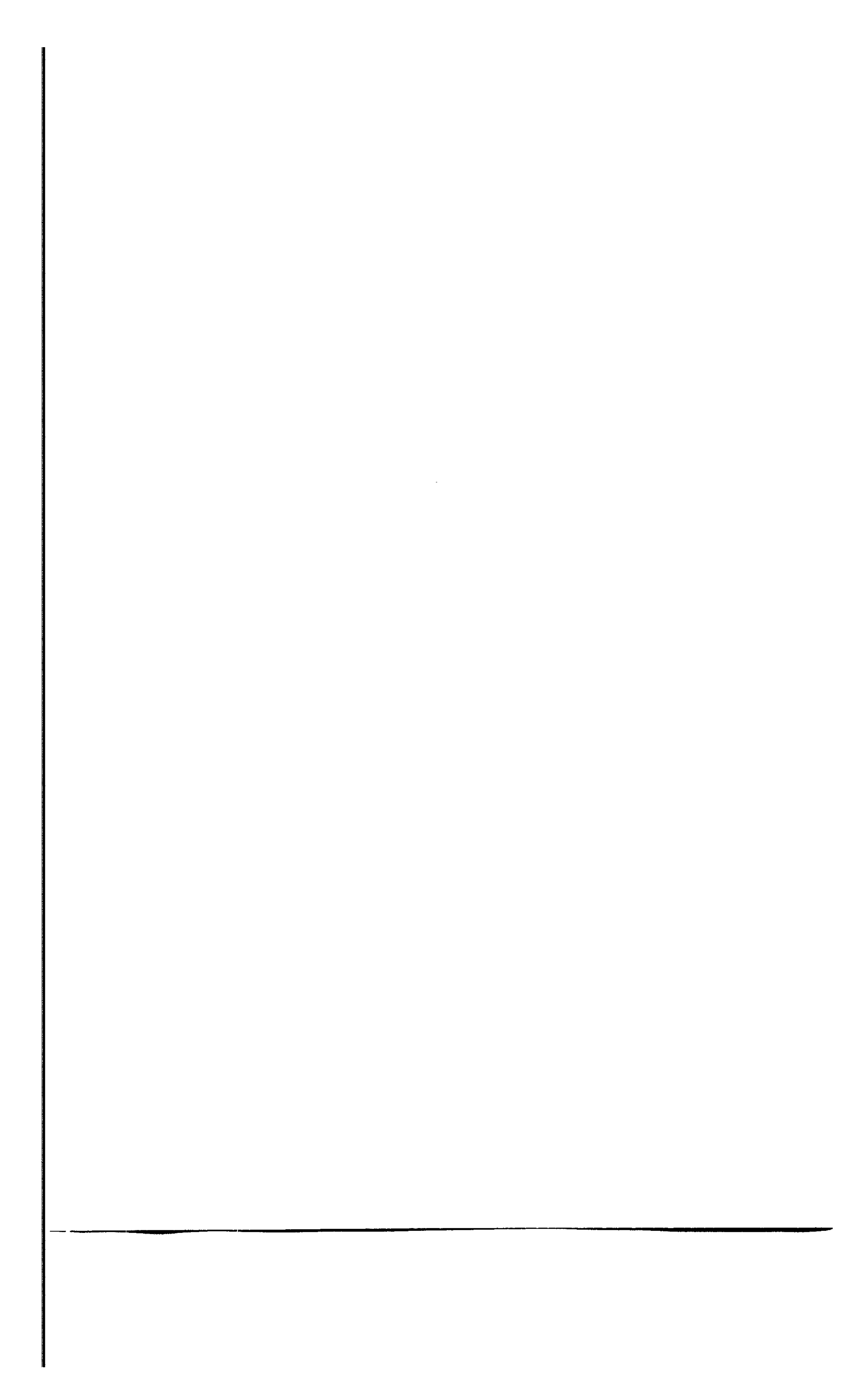
(1) راجع : وفاء الوفا بأخبار المصطفى ج ٣ ص ٩٧٠

خاتمة

وبعد : فهـذه لمحة يسيرة من تراثنا الإسلامـي تكشف عما يتميـز به عن غيره من النظم الأخرى .. وقد ظهر واضحا جليا أن الإسلام جاء لسعادة البشرية الحقة لأنه نظام متكامل فيه ما يفي بحاجات الإنسان وما يحقق مصالحه الدنيوية والأخروية ،ويرقى به جسمانيا وروحيا في توازن واعتدال ، وأنه الدين الوحيد الذي لا يصادم الفطرة ولا يتنكر لها بل يعترف بها ويحافظ عليها ويوجهها الوجهة المثلى حتى يستطيع الإنسان أن يقوم بواجبه على الوجه الأكمل وأن يحقق الرسالة التي خلق من أجلها . وبهذا الأسلوب ترتقي الحياة وتنعم البشرية وتتقدم الحضارة ، وتنهض الأمة روحيا ،ماديا في الإطار الذي رسمه الإسلام لخير الإنسانية وسعادتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .



الفهـــرس



ما رأيك ؟

ـ وبعد يا عزيزى القارىء الكريم ...

فهذه رسالة اسلامية يقدمها لك المجلس الأعلى للشئون الاســلامية فى الخامس عشر من كل شهر عربى ، لعلها تحوز رضاك ، وترد على بعض الأسئلة التى تراودك ، وتدور بخلد كل مســلم غيور على دينه ، حريص على الاستزادة من مناهل الاسلام العذبة .

اكتب لنا برأيك فيها ، وما تراه من توجيهات تهدف أولا وأخيرا الى خدمة أجل رسالة وأتم هدف .وثق أننا سنكون عند حسن ظنك ، وسنلبى طلبك وستكون رسالتك موضع الاعتبار والتقدير فنرد عليها اذا كانت حرية بذلك .

والله نسأل أن يلهمك السداد والتوفيق .

على أن يكون خطابك متضمنا البيانات التالية :

الاسم : . . . .

العنوان : . . . .

الوظيفة : . . . .

ويرسل الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

القــاهرة ٣ شارع الأمير قدادار متفرع من ميدان التحــرير .

(قسم الرسائل والتراث)

رقم الايداع ٥١٥٠ / ١٩٧٧

الترقيم الدولى ٠ـ٦٨ـ٢٤١ـ٩٧٧ ISBN

مطابع الأهــرام التجارية

